بسم الله الرحمن الرحيم

====

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
قسم الأدب والنقد
....

...((لبيد بن ربيعة .. حياته وشعره)).

================

رسالة مقدمة من

الطالب / حامد محمد جبر أبو عريبان

تحت اشراف

فضيلة الأستاذ الدكتور / أحمد الشرباصي

لنيل درجة

التخصص (الماجستير)

١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م

== ==

بسم الله الرحمن الرحيم

=======

" اقرأ باسم ربك الذى خلق ٥٥ خلق الانسان من علق ٥٥ اقرأ وربك الأكرم ٥٥ الذى علم بالقلم ٥٥ علم الانسان ما لم يعلم ... "

" صدق الله العظيم "

أحمد الله – تبارك اسمه – على جزيل نعمائه ، وأشكره – تعالى جده – على جميل آلائه ، وأسأله – وحده – فيض عطائه ، وفضل سنائه .

وأصلى وأسلم على رسوله المصطفى ، ونبيه المجتبى ، سيدنا ومولانا ، وقائدنا ورائدنا ، محمد بن عبد الله سيد العرب والعجم ، وأفضل من سارت به على الأرض قدم ، ... وعلى آله وأصحابه وأنصاره وأحبابه ، الذين " آزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون " .

وبعد ...

فانه مما يسرنى ويثلج صدرى ، ويبهج خاطرى ، ويريح قلبى ، ويشرح فؤادى ، وييسر نفسى ، ويثير حسى ، أن أتقدم هذا البحث وأضعه بين أيدى رجال أمناء ، رجال لهم باع طويل فى خدمة الدين والعلم ، وستبقى تلك النخبة رافعة رايته المنتصرة الى يوم الدين .

كما اننى أتقدم جزيل الشكر والعرفان ، الى سيادة الأستاذ الدكتور أحمد الشرباصى الذى قدم لى ولأخوتى الدارسين كل مساعدة وفتح لنا جميعا باب بيته على مصراعيه ، لننهل من مورده ، ونكرع من حياض مكتبته العامرة ، سائلين الله سبحانه وتعالى أن يمنحه الصحة والعافية وأن يمد فى عمره ليخدم أبناء هذا الدين الحنيف .

والله المستعان

حامد عريان

بسم الله الرحمن الرحيم

======

" لماذا اخترت هذا البحث ؟ "

=======

وقع اختيارى على الشاعر لبيد بن ربيعة – ليكون موضوع رسالتي – لعدة أسباب :

×× أنه شاعر مخضرم عاش زمنا في الجاهلية وحقبة من الزمن في ظل الاسلام وقد كان في طليعة الشعراء المخضرمين عدا شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم – حسان بن ثابت الانصارى – أنه عاش مدة طويلة من الزمن عرك الحياة وعركته ، وخبرته وخبرها ، حتى عد من المعمّرين ونحن في حاجة ماسة الى مثل تجاربه وخبرته في الحياة وحكمته التى اكتسبها طيلة حياته .

×× وهو فحل من فحول الشعراء وصاحب المعلقة الرابعة ، وقد عرف النقاد القدماء ماله من مكانة ووضعه بعضهم في المكانة اللائقة به ، وفضله بعضهم على شعراء الجاهلية والاسلام اذ كان أقلهم سقطا ولغوا .

×× ولبيد هذا – عدا خضرمته – يعد مثلا حيا يستدل به لأصحاب المعلقات فاهميته تقوم على أنه البقية الباقية من شعراء الجودة والمذهبات .

×× ومع هذا كله لم يأخذ حقه من العناية والدرس الا اذا استثنينا بعض الدراسات العاجلة المرتجلة .

×× وقامت حوله أوهام كثيرة ومبالغات وأخطاء تصورها القدماء ونقلها المتأخرون من الذين كتبوا في الأدب وأرخوا لاعلام العرب ، من ذلك ماتوارثه الكتاب حول امتناعه عن قول الشعر بعد اسلامه ، وكذلك أسطورة

قتلـــه المنذرين مـــــاء السـمــاء •

×× وترجع أهميته كذلك الى أنه شاعر من الشعراء المجددين ، ترك آثـارا شعرية هي في الصدارة بين الشعراء الجاهليين والاسلاميين •

×× كما أنه لم يكن من الشعراء الذين يمرون عبر الزمان ولا يخلفون غيـــــر ديوان وبضعة أخبار ، بل كان كريما من الأجواد ، وقد نذر أن يطعـــــم ما هبت الصبا ، والتزم بسنته هذه في الجاهلية والاسلام ، وقد صـــــار مذكورا بين الناس بخصال تفرد بها فصارت أخباره ومآثره أحاديث الناس ، ملوكا وأمراء وسوقة •

×× وتبرز أهميته في تاريخ الأدب العربي من جهة أنه رجل له خطره ومكانته بين الرجال ، فهو من أمجاد الأمة حين ينظر الى المجد من خـــــلال سيرة العظماء وتاريخ الأبطال من الرجال •

" منهــــــاج البحــــــث "

يجدر بنا ونحن دخول على حياة شاعر – عاش مدة من الزمـــن في الجاهلية وأخرى منه في الاسلام – أن نمر مسرعين بالشــــعراء المخضرمين ، ونتكلم بايجاز عنهم ، وأن نتناول مجموعة الشعراء الذيــن هز الدين الاسلامي مشاعرهم وحرك وجداناتهم ، سواء منهم الذيــن انضووا تحت لواء هذا الدين الجديد ، وتفيأوا ظله وكرعوا مـــن حياضه ومناهله ، فكان نعم المورد أو هؤلاء الذين ارتضوا لأنفســـهم العزلة ، أو هؤلاء الذين ناصبوه العداء .

وعلى هذا ينحصر حديثنا في شعراء الفترة الاسلامية المحصـــورة بين وضوح الدعوة المحمدية في بداية الهجرة حتى بداية العصر الأموي .

والخضرمة ... اصطلاح اسلامي جديد في معناه الفني وان لـم يكن جديدا في معناه اللغوي ، فالخضرمة بمعناها الجاهلي تتصل بالاذن المقطوع من طرفها شيء ، وبالماء الذي فسد فاختلط بين الحلو والمالـح ، وبالصبي الأسود من أب أبيض ، وواضح من ذلك أن معنى الاختلاط والتداخل وارد في كل ذلك ، وحتى المعنى الاسلامي يفيد الاشتراك في عهــدين مختلفين كاختلاط الحلو والمالح والأسود والأبيض .. ويقال للواحـــد مخضرم ، وقد لازمت الكلمة اتصالها بالاسلام فلم تكن تطلق على من شــهد عصرين غير الجاهلية والاسلام ، ولكن المتأخرين تجوزوا في اطـــلاقها على أي عصرين مختلفين .

" البيئـــة وأثرها في الشعر الجاهلي "

=======

كان للبيئة أثرها في الشاعر الجاهلي ، يصدر في شعره عن قيم ومثل وعادات هي غرس تلك البيئة ، وكانت دواعي الشعر هي نتاج تلـك القيم ، فالروح القبلية المتأصلة تستوجب الحفاظ على القبيلة واحسابهـا وأيامها ومفاخرها ، وكان الشاعر لسان قبيلته الذاب عنها المؤرخ لمواقعهـا وأيامها ، فكان طبيعيا أن ينطلق الشاعر من هذه الاعتبارات وتلـــك المفاهيم ، فيفاخر ويناقض غيره ويرثي ويتغنى بالقبيلة ويهاجي الشـــعراء الآخريـــــن .

وفي الوقت الذي يكون فيه الشاعر لسان قبيلته لا ينسى نفســــه فيذكرها ، وكان عنده أن من تمام الرجولة والفتوة أن يحب ويتشـــبب ويتغزل ويتغنى بذكرياته مع من يحب ، وأن يشرب الخمر ويطرب فيذكـــر الخمر وفعلها ويفاخر في ذلك بأنه يهلك ماله في سبيلها وعرضه لم يكلم ، فاذا شرب وطرب لعب الميسر وأجال القداح ونحر الجزور فأطعم الجائـع وأكرم الأضياف وأعان الملهوف وناصر المظلوم ، ثم هو يغير ويقضي علـــى خصمه ويقارع الأنداد ويهزم الأقران .

والشاعر في بيئته البدوية الصحراوية القاسية وراكب الحركة يحـــن الحلل والترحال ، فاذا ماركب ركوبته في جوف الليل أو وضح النهـــار ، أخذ في وصف ماصادفه في رحلته من حيوان أو وحش مفترس قاهـــر ، راسما وواصفا الشجار الذي جرى بينهما مبينا كيف انتصر عليه ، واذا لـم يشغل باله بشيء عطف الى ذكر رحلته ومخاطبة ركوبته ، فكان وصـــف

الجمال من أبرز الأوصاف ، فاذا مرّ بطلل دارس أو أثر بال وقف واستوقف وبكى واستبكى واجتر ذكريات أيامه الخوالى .

ومن هذه المفاهيم والقيم ومن تلك البيئة والحياة ، كان من الطبيعى أن تبرز فنون الشعر الجاهلى على ماهى عليه دون تحمل أو تصنع أو تعنت ، ولذا فان دواعى الشعر ودوافعه كانت قوية توجبها البيئة ونوعية التفكير وحرص الناس على الشعر وحفاظهم عليه ، فهو تاريخهم يحفظ لهم مآثرهم وأمجادهم وأيامهم ... الخ .

ولما أشرقت شمس الاسلام على العقول بددت ظلامها ، ونزل القرآن الكريم فطمأن من تلك العواطف الثائرة ، وأسلس نفوس العرب النافرة وأعاد اليها الأمن الذى سلبته أحقابا طويلة ، وارتقت العقول لتودع حياة الفوضى التى ألفتها وعاشت فيها ، وتجد هاديا يبصرها بأمور دنياها ، ويهذب من سلوكها كما يبصرها بأمر ربها ، وحساب أخراها .. وتبقى نفوس حائرة يجتذبها ضلالها القديم ، اذ رأت فى الدين الجديد شيئا يباعد بينها وبين وثنيتها الأولى وضلالها القديم ، ~~اذ رأت فى الدين~~ التى هامت بها ، وعبدتها طوال جاهليتها المظلمة ، فيصطرع الهدى والضلال بالحجة والبيان ، ثم يحتكمان الى السيف اذا امتد الخصام الى العدوان .

والى جانب الحجة والسيف كان الشعر سلاحا من أمضى الأسلحة فى النيل من الأعداء المعاندين ، وقد أخذ يشق طريقا جديدا ، فيصبح لسان الدعوة الجديدة ، ويشيد بانتصاراتها ويشيع مبادئها ، وفى اصلاح المجتمع ، والعمل للدنيا والآخرة ، كما أصبح كذلك لسان المشركين

يعلنون به أصرارهم على قديمهم ، ويدعون به الى الاستبسال فى مقاومة الهدى والهداة .

وبذلك انتقل الشعر من طور الى طور ، وبعد أن كان تعبيرا عن أهواء النفوس ، وتشجيعا للعصبية الفردية ، أو العصبية القبلية ، أصبح تشيعا للمبادىء التى انحصرت فى مبدأين سياسيين يسيران فى اتجاهين متضادين .. وكان هذا عاملا من العوامل التى أبقت للشعر سلطانه ، وزادته قوة فى الحقبة الأولى من صدر الاسلام .

وفى هذا الصراع الخضم كثيرا ما كان يضيف شعراء المسلمين الى تلك المعانى المعهودة ماالتبسوه من دينهم من نبز المشركين بالضلال ، وتسفيه أحلامهم ، والفخر بأنهم دعاة الحرية والهدى ، والتحرر من الوثنية وعبادة الأصنام .

وكما اعتز الكفار بشعرائهم استعان النبى صلى الله عليه وسلم بذوى الشاعرية من المسلمين ، يحثهم على تأييده ويقول للأنصار : " ما يمنع الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم "[1] فينتدب منهم طائفة من المتحمسين لدينهم من أمثال : حسان بن ثابت الانصارى وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ليقفوا صفا فى وجه الشعراء المشركين من أمثال عبد الله بن الزبعرى ، وعمرو بن العاص وأبى سفيان بن حارث وكعب ابن الأشرف اليهودى وكما استحر القتال فى ميدان الوغى ، استحر القتال بين شعراء الفريقين ، فاذا دارت الدائرة على المشركين فى يوم بدر ، وكتب الله للمسلمين النصر بهذا العدد القليل ، انطلقت ألسنة الشعراء المسلمين تذكر هذا النصر المؤزر الذى ظفر به النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) السيرة لابن هشام جـ ٢ ص ٢٤٠ ط . الحلبى .

وأصحابه ، وتندد بقريش وأبطالهم الذين صرعهم الغى والضلال ، ولم تغن عنهم كثرتهم شيئا .

فمن فعل ذلك حمزة بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب ، وكعب بن مالك ، وقد روى له ابن هشام ثلاث قصائد ، وحسان بن ثابت ، وقد روى له ابن هشام تسع قصائد ، فى هذه الموقعة وحدها ، وعبيدة ابن الحارث بن عبد المطلب .

وممن أشاد بالمشركين ، وبكى قتلاهم الحارث بن هشام بن المغيرة وضرار بن الخطاب ، وعبد الله بن الزبعرى ، وأبو بكر بن الأسود ، وأمية ابن أبى الصلت ، ومعاوية بن زهير بن قيس ، وهند بنت عتبة ، ولها أربع قصائد فى رثاء أبيها وقومها ، وصفية بنت مسافع .. الخ

وهكذا نرى الشعر ينشط فى تلك الفترة نشاطا ملحوظا ، ويجرى على ألسنة الرجال والنساء ، فاذا قال شاعر من المسلمين قصيدة فى الفخر بما كتب الله له من النصر ، تصدى له شاعر من المشركين يحاول أن يهدم فنه وينقض قوله ، فاذا أنشد حمزة بن عبد المطلب قصيدته التى مطلعها :

ألم تر أمرا كان من عجب الدهر ⁂ وللحين أسباب مبينة الأمر

أجابه الحارث بن هشام بن المغيرة بقصيدة على رويها ووزنها مطلعها :

ألا يالقومى بالصبابة والهجر ⁂ وللحين منى وللحرارة فى الصدر (١)

وحين يقول على بن أبى طالب فى يوم بدر :

ألم تر أن الله أبلى رسوله ⁂ بلاء عزيز ذى اقتدار وذى فضل

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ج ٢ ص ٢٦٠ تقديم وتعليق طه عبد الرؤف

الحارث
يجيبه الحطيئة بقصيدة على وزنها وقافيتها مطلعها :

عجبت لأقوام تغني سفيههم ∴ بأمر سفاه ذي اعتراض وذي بطل (١)

وينهد ضرار بن الخطاب بن مرداس في النيل من الأنصار والتهديد
مرداس

بالانتقام منهم :

عجبت لفخر الأوس والحين دائر ∴ عليهم غدا والدهر فيه بصائر

ويجيبه كعب بن مالك — وهو من شعراء النبي صلى الله عليه وسلم —

بقولـــــه :

عجبت لأمر الله ، والله قادر ∴ على ما أراد ليس لله قاهر (٢)

ويبكي عبد الله بن الزبعرى صرعى بدر من وجوه المشركين بقصيدته :

ماذا على بدر وماذا حوله ∴ من فتية بيض الوجوه كرام

فيشمت به صنوه حسان بن ثابت ويتمنى أن تكون دموعه دما :

ابك : بكت عيناك ثم تبادرت ∴ بدم تعل غروبها سجلم (٣)

ولا ينسى ابن الزبعرى شماتة حسان ، فاذا كان يوم أحد الذي أبتلى
فيه المؤمنون ، أسرع الى الزهو بما أصاب المشركون في هذا اليوم الذي ثأروا
فيه بقتلاهم فيقول في قصيدته التي مطلعها :

ياغراب البين أسمعت فقل ∴ انما تنطق شيئا قد فعل

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام جـ ٢ ص ٢٦٢
(٢) المرجع الســـــابق جـ ٢ ص ٢٦٤
(٣) المرجع الســـــابق جـ ٢ ص ٢٦٥

ولا ينسى أن يشتفي من حسان الذي سأل له البكاء الطويل والحزن المقيم يوم بدر فيقول :

أبلغا حسان عني آية ∴ فقريض الشعر يشفي ذا الغلل

ويذكره حسان بيوم بدر ، وما نال المشركين فيه وان الأيام دول فيقول :

نزلت بابن الزبعرى ضربة ∴ كان منا الفضل لو عدل

ولقد نلتم ونلنا منكم ∴ وكذاك الحرب أحيانا دول (١)

وهكذا يظهر لنا أن النقائض وجدت في تلك الفترة في صورتها الكاملة ، ولم تكن نقائض جرير والفرزدق والأخطل شيئا ابتدعه الشعراء في دولة بني أمية ، بل كان لها أصل معروف كامل الأركان في أوائل أيام الاسلام .

وتدل تلك النقائض التي ذكرنا طرفا منها على تنبه ملكة العرب النقدية في تلك الفترة ، لأن صاحب النقيضة يتتبع ما قاله خصمه ، ويحاول بكل جهد أن يهدم هذا القول بنظم على مثاله وروي على غراره .

وهذا النقد لا يقف عند العبارة الموجزة التي يلقيها الناقد ، ولا عند الأحكام المرتجلة ، يبين فيها رأيه في الشعر ، أو في الشاعر ، بل هو نقد يمكن أن يوصف بأنه نقد عملي ، فيه المحاكاة الظاهرة ، فيه النقض أو النقد الفعلي الذي يتناول هدم المعاني والأفكار .. الخ .

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام جـ ٣ ص ٦٨ — ٦٩

هذا من ناحية ... ومن ناحية أخرى ، فان الاسلام فهو

هذا جاء تلبية لحاجة العرب النفسية والفكرية فى طور استعدادهم

لتقبله ... وكان حدثا هاما وثورة كبرى ليس فقط فى تاريخ الأمة

العربية بل فى تاريخ الانسانية قاطبة ، وتحولا جذريا عصفت بمفاهيم

الجاهلية وعاداتها ، فهزت النفوس وأذهلت الشعراء وعقدت ألسنة ذوى

البيان ... وجاء الاسلام بتعاليم ومفاهيم جديدة ومعايير أخلاقية

غير مألوفة لديهم ، واتصلت فيما تعارفوا عليه ، واستحدثت قيما أخرى

غيرها ، فالعصبية القبلية التى كان يصدر عنها الشاعر ، تحطمت وقضى

عليها ، وحل محلها رباط الايمان والتقوى والصلاح ، ووحد الدين الجديد

العرب ، وصاروا أمة واحدة لا تفاخر ولا تفاضل ولا تنابز بالألقاب ، وانما

التفاضل بالتقوى ، قال تعالى : " ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى

وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم " صدق الله العظيم .

والى جانب هذه الثورة الجماعية التى أحدثها الدين الجديد ،

أحدث ثورة شخصية ، فنظم حياة الانسان وهذب نفسه وكبح مشاعره ، وغير

مفاهيمه وحدد له أمورا مباحة مستحبة وأخرى محذورة مستكرهة ، كالتفاخر

والتهاجى ، وأبطل عادات مستقبحة كانت منتشرة انتشارا واسعا فى مجتمعهم

فصار الخمر والميسر رجسا من عمل الشيطان وعليهم أن يجتنبوه ، وقد فتح

الاسلام للعرب آفاقا جديدة ، فانتشروا فى الأرض وامتزجوا بأقوام

جدد ووطأوا أرضا لم يروها من قبل .

ونتيجة لذلك كله اختفت دوافع الشعر القديمة أو أوشكت ،

وحل محلها دواع جديدة هى : ذكر الخير ونشر الدين وبث العقيدة والعفاظ

عليها ، والحث على عمل الصالحات .

فأسباب الشعر التى ألفها الشاعر والتى كانت خيرا صارت شـــرا مستطيرا لهؤلاء الذين أسلموا فى بداية الدعوة .

وقد شملت روح الدين الجـديد كل العصر وأهله فى فترة قصيـــرة من عمر الزمـــن ، فالذى لم يدخل الاسلام قلبه لم يجد من يســـتجب ويتجـــاوب مع شعره ان أراد أن يقوله بروح الجاهلية الأولى ، وعلــــى الأخـــص أن الاسلام كان آخذا فى الانتشار كما تنتشر النار فى الهشيم .

وقد حاولت فئة من المشركين تقليد القرآن ، لكنه تحـــدى العرب أن يأتوا بمثله ، أو عشـــره مثبتا بذلك بلاغته وفصاحتــــه وقوة بيانه ، قال تعالى : " قل : لئن اجتمعت الانس والجـــن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعـــض ظهيـــرا " صدق الله العظيم .

مواقف الشعراء من الدين الجديد

==========

للشعراء المخضرمين مواقف ثلاثة من الدين الجديد :

١) شعراء المدينة :

وهم المدافعون عن الرسالة وحاملو لواء الدعوة اليه عن طريق الشعر ... وفي مقدمة هؤلاء شاعر الرسول عليه السلام " حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، ويعد من ضمن شعراء الدعوة كعب بن زهير ، الذي مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بقصيدته المعروفة - بالبردة - وغير هؤلاء الشعراء ، وكان هناك عدد من النساء الشواعر ، منهن : صفية بنت عبد المطلب ، ونعمة امرأة شماس بن عفان ، وقد جاء شعرهن جميعا في السيرة النبوية .

٢) شعراء مكة والطائف :

الذين رثوا قتلى المشركين وهجوا الرسول صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والأنصار ، وقد فقد معظم شعر هؤلاء - اللهم الا قلة قليلة من المقطوعات التي تفي بالحاجات ، وقد عمل المسلمون على طمسه وتحرجوا من نقله وروايته ، ومن هؤلاء الشعراء عبد الله بن الزبعرى ، وضرار ابن الخطاب الفهري ، والحارث بن هشام ، وأبي سفيان - وفيهم نزلت الآية الكريمة : " والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون " صدق الله العظيم .

وقد انضم لهؤلاء بعض الشعراء من القبائل الأخرى وخاصة اليهود كأمية بن أبى الصلت وكعب بن الأشرف وغير هؤلاء من الشعراء ، وكان لقريش نساء يحرضن على قتال المسلمين ويندبن موتاهم ويبكين قتلاهم ويمثلن بشهداء المسلمين ، ومنهن : هند بنت عتبة وصفية بنت مسافع ..
وقد امتاز اسلوبهن جميعا بالأسلوب الجاهلى القديم .

٢) شعراء البادية :

الذين أسلموا دون أن يتعمقهم الاسلام ولم يؤثر فى انتاجهم الشعرى تأثيرا واضحا ، ومن هؤلاء متمم بن نويرة اليربوعى صاحب المراثى المشهورة فى أخيه مالك وغيره .

وعند ذكر المخضرمين وأثر الاسلام فيهم يكون ذكر شعراء البادية هذا من باب التعميم ، لأن شعر البادية لا يعد مخضرما من الناحية الفنية فهو صورة مستمرة من الشعر الجاهلى لم يتأثر بالفكر الاسلامى ولا بمعانيه وقيمه الجديدة .

وبعد أن وقفنا على اتجاهات المخضرمين وموقفهم من الاسلام ، قد حان لنا أن نلم مسرعين بموقف الاسلام من الشعر والشعراء .

لقد وقف الدين من الشعر موقفا واضحا ، فمن حيث هو يدعو الى الصلاح والفلاح والخير والبركة ، لا يحظره ولا يتعرض له ، ولذا أصغى صاحب الشرع عليه السلام له وأثاب عليه كما فعل مع كعب بن زهير ، وأما كونه كذبا وتشهيرا وتجريحا لأعراض الناس ودعوى للعزبية واحياء للعصبية واعراضا عن الحق ومنفذا للتفاخر والتنابز والتناحر على الباطل ،

فقد منعه وحظره ، بل حاربه ووقف فى وجهه ، فقد كان المشركون يعدون القرآن الكريم شعرا ويتهمون الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر ، لان كلام الله عقد ألسنتهم بفصاحته وروعته وقوة أسره ، وقد جاء القرآن الكريم ليرد على هذا الزعم ردا حازما وقويا ، حيث قال تعالى : " أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون " ، " وما علمناه الشعر وما ينبغى له أن هو الا ذكر وقرآن مبين " ، " وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون " صدق الله العظيم •

هذا فيما يتعلق بالرد على الذين يقولون بأن الرسول صلى الله عليه وسلم شاعر وقوله شعر ، وقد ذكر القرآن الكريم الذين هجوا الاسلام والنبى المختار ، فجاء فيهم قوله تعالى : " والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وانهم يقولون مالا يفعلون الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا " صدق الله العظيم •

هذا ••• وقد بين عليه السلام للناس كافة موقف الدين من الشعر ، روى ابن رشيق فى عمدته : أنه قال صلى الله عليه وسلم فى الشعر الذى يحرك الأحقاد ويشعل فتيل النعرة الجاهلية : " لان يمتلىء جوف أحدكم قيحا حتى يريه خيرا من أن يمتلىء شعرا " •

أما موقفه من الشعر والشعراء الذين يدافعون عن الاسلام ومبادئه ، ويجاهدون فى سبيل اعلاء كلمة الحق ويقاتلون ويقتلون دونه ، فكان يستمع اليه ويأخذ بيده ، لأن فى ذلك نصرا للحق واحقاقه واستتباب الفضيلة وزوال الرذيلة ، فكان يقول لحسان بن ثابت محرضا اياه على هجاء أعداء الله والدين : " اهج قريشا فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام فى

غبش الظلام ، اهجهم ومعك جبريل وروح القدس " .

وللرسول قول يقوم فيه الشعر ويحدد مكانته من الدين ، فقد روى عنه أنه قال : " امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء وقائدهم الى النار ، وحسان ابن ثابت يقود جموعهم الى الجنة " ، وهو القائل مبديا اعجابه بالشعر أن من الشعر لسحرا " ، وقوله في بيت صاحبنا لبيد بن ربيعة : " أصدق كلمة قالها الشاعر قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ⁂ وكل نعيم لا محالة زائل

ولما سمع عليه السلام بيت طرفة بن العبد :

ستبدى لك الأيام ماكنت جاهلا ⁂ ويأتيك بالأخبار من لم تزود

استحسنه وقال : " هذا من كلام النبوة " .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ينصت للمناظرة الشعرية التي تجرى بين يديه ، فقد قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم عطارد بن حاجب بن زرارة في اشراف تميم ومنهم الأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم ، لمفاخرة النبي صلى الله عليه وسلم ، فوقف خطيبهم عطارد فخطب ، فانتدب الرسول صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس الخزرجي للرد عليه ، فلما فرغ قام شاعرهم الزبرقان فأنشد قصيدة منها هذا البيت :

نحن كرام ، فلا حي يعادلنا ⁂ منا الملوك وفينا تنصب البيع

وكان حسان بن ثابت غائبا ، فبعث الرسول صلى الله عليه وسلم في طلبه ليجيب شاعر بني تميم ، فحضر ، وأنشد قصيدته :

ان الذوائب من فهر واخوتهم ⁂ قد بينوا سنة للناس تتبع[1]

---

(١) السيرة النبوية : ابن هشام ٤ : ٢١٤ ط . الحلبي .

وقد ظهر حسان بن ثابت على الزبرقان ، كما تفوق ثابت على عطارد ، وهكذا يظهر لنا جليا موقف الرسول الكريم المشجع للشعر الذى يخدم الدين والخير والفضيلة والناهى عن الشعر الذى يثير الحقد ويشحن العصبيات ، وماكان منه عليه أفضل السلام أن يقف فى وجه الشعر ، وهو العارف الخبير بهذه الأمة الشاعرة ، وهو يدرك أن الشعر طبع مغروس فى نفوس العرب حيث قال : " لن تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين " (١) .. أى أن الشعر فطرة مغروسة فى النفوس لا يتخلى العرب عنها ، وانه لازم للتعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم لزوم الحنين للابل .

وقد سار الخلفاء الراشدون على هذا المسلك الذى رسمه لهم أكرم الخلق نحو الشعر والشعراء ، فوقفوا موقفه ، فحاربوا ما كان منه دعوة لشر وضغينة وهادنوا ماكان منه دعوة لفضيلة ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : " اروروا فى الشعر أحسنه " ، وكان كثيرا ما يستمع للشعراء ويجلسهم معه ويناقشهم ، ويقابل الوفود ، كوفد غطفان ، غير أن موقف الخلفاء الراشدين من الهجاء كان حازما وشديدا وعلى وجه أخص الخليفة عمر بن الخطاب ، وحبسه للشاعر الحطيئة أمر ذائع معروف لهجائه وطولة لسانه ، ولأبى محجن فى شربه ومعاقرته الخمر والقول فيه .

ذلك كان موقف الذكر الحكيم وقائد الفكر الاسلامى وأصحابه من الشعر والشعراء ، وهو موقف منبثق من طبيعة الدعوة وروح الرسالة الاسلامية ،

---

(١) العمدة : ابن رشيق ج ١ ص ١٢

فالشعر غير محظور ، بل على العكس كان محل تشجيع ومثوبة واهتمام ، مما جعل الشعر يخطو الى الأمام ، ويقود الناس الى طريق الصلاح والرشاد ، ويساعد السيف في نشر الدعوة ، ويطمس معالم الجاهلية •

قد حان الآن أن ندخل في صلب موضوعنا الأصلي ، والله المستعان •

البـــــــــاب الأولـــــــــ

= = = =

(((عصــــــــر لبيـــــــد وحيـــــــاته)))

الباب الأول

= = = =

(((مصر لبيد وحياته)))

الفصـــــل الأول

عصـــــر الشـــــاعر ((بين الجاهلية والاسلام))

============

يعد لبيد من المعمرين الذين عاشوا دهرا طويلا حتى سئم الحياة ، وقد تواترت الروايات والأخبار على أنه عمّر دهرا طويـــــلا ، ولكن هؤلاء الرواة تباينوا في مدة الدهر هذا ، الا أنهم غالوا فـــــي عمره ، فأكثر الروايات تواضعا تذهب الى أنه عاش ثلاثين ومائة ســـــنة على مايذكر الكلبي ، والبعض ذكر أنه عاش خمسا وأربعين ومائة ، غيـــــر أن أكثر الروايات تطرفا تقول : " انه عمّر سبعا وخمسين ومائة ، ويذكـــــر القرشي : " حرم عليه نكاح خمسمائة امرأة من نساء بني عامر ، البعـــــض منهن بناته والبعض الآخر بنات بناته " (١)

وقد شكا لبيد من الدهر عندما ثقلت عليه أعباء الحيـــــاة وهمومها ، ويذكر أنه قال وهو في السابعة والسبعين :

قامت تشكى الى الموت مجهشة ∴ وقد حملتك سبعا بعد سبعينا

فان تزادى ثلاثا تبلغي أملا ∴ وفي الثلاث وفاء للثمانينـــا

ويروى : " قامت تسكى الى النفس " (٢)

ولما بلغ التسعين قال :

كأني وقد جاوزت تسعين حجة ∴ خلعت بها عن منكبي ردائيا

---

(١) جمهرة أشعار العرب ص ٣١

(٢) ديوان لبيد : دار صادر بيروت ص ٢٣٩

ويروى : " كأني قد خلفت " (١)

ولما بلغ العشرة بعد المائة قال :

أليس في مائة قد عاشها رجل ❖ وفي تكامل عشر بعدها عمر (٢)

ولما زاد عمره عن ذلك قال :

ولقد سئمت من الحياة وطولها ❖ وسؤال هذا الناس كيف لبيد

ويقول أيضـــا :

غلب العزاء وكنت غير مغلب ❖ دهر طويل دائم ممدود

يوم اذا يأتي على وليلـــة ❖ وكلاهما بعد المضاء يعود

وأراه يأتي مثل يوم لقيتـــه ❖ لم ينصرم وضعفت وهو شديد (٣)

ويروى : " غلب الرجال لم ينتقص " (دار صادر بيروت) .

ولربما يقول البعض : أليس من الواضح أن أبا عقيل قد أرخ عمره واعترف أنه بلغ عشر بعد المائة من السنين ؟ فهو اذن وفر على الباحث مجهوده في حالة صحة هذه الأبيات ، ويروى الرواة بعضا من أبياته لــم يتطرق فيها الى عمر محدد ، غير أنهم ذكروا أنه قالها حين بلغ الأربعين بعد المائة ... كل ذلك وارد ، ولكن الأبيات التي عين عمره فيهـــا لا نهتنا في شيء ، لأن واقع الحياة يقول: ان الرجل اذا جاوز الثمانين من عمره تختلف عليه السنون أغلب الظن ويأخذه الكبر والوقار فيبالغ في عمـره

---

(١) حديث الأربعاء ج ١ ص ٥١ . طه حسين .

(٢) الأغاني ج ١٥ ص ٢٩١ . الأصفهاني .

(٣) كتاب المصريين ص ٦٦ . أبو هاشم السجستاني .

ودهره سواء ذلك وهما منه أو مبالغة وتجاوزا ، أما الرواة فهم يختلفون في رواية الأبيات أولا وفي مضمون الرواية ثانيا .

ولنرى بماذا قدر الباحثون عمر لبيد ....؟

فابن قتيبة يذكر أنه توفى أول خلافة معاوية سنة ٤١ هـ - ٦٦١ م ، عن سبع وخمسين ومائة سنة ، أي أنه ولد سنة ٥٠٤ م ، أما صاحب الاصابة فيذكر أن لبيدا لم يدرك عهد معاوية وانما توفى في عهد عثمان أيام الوليد بن عقبة ، وعنه أخذت دائرة معارف بيروت ، حيث ذكرت أنه توفى في خلافة عثمان بن عفان ، ومن المعروف أن عثمان تولى الخلافة سنة ٢٣ هـ - ٦٤٣ م ، ومعنى ذلك أن هذه الرواية على خلاف الروايات التي تقول : ان لبيدا أدرك معاوية وكانت بينهما كلمة حول العطاء ، وقد ذكر صاحب الاصابة رواية أخرى تقول : " أدرك لبيد معاوية وهو في الأربعين والمائة ، فيكون ميلاده سنة ٥٢١ م ، أما جورجي زيدان فيقرر أن لبيدا توفى سنة ٦٧ هـ ٦٨٧م ، وأن عمره خمسا وأربعين ومائة ، فيكون ميلاده والحالة هذه سنة ٥٤٢ م .

أما أغرب الروايات وأكثرها ارتجالا ، فهي رواية بدر الدين العلوي فيذهب على أنه توفى ٦٠ هـ ، أي جعله يعمر حتى خلافة يزيد بن معاوية وأن أكثر الروايات تواضعا هي رواية كارل بروكلمان ، فيذهب الى أنه ولد سنة ٥٦٠ م ، وتوفى سنة ٦٦٠م ، ليلة نزول معاوية بالنخيلة لمصالحة الحسين بن علي [1] ، فيكون عمره مائة سنة .

---

(١) تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ١٤٥ كارل بروكلمان .

هذا ... وأن الرواة مجمعون أن لبيدا كان غلاما لما قدم فى وفد من قومه على النعمان بن المنذر ، ونحن نعلم أن النعمان هذا كان موجودا من ٥٨٠ — ٦٠٦ م على الأرجح ، وهو صاحب النابغة الذبيانى ، فاذا سلمنا أن قدوم وفد الجعفريين على النعمان كان فى أول ملكه ، واذا سلمنا أن لبيدا كان عمره اذ ذاك مايقارب من العشرين على الأكثر ، لأن الرواة مجمعون على القول أن النابغة أعجب بشعره وهو غلام بعد ، والنابغة من جيل النعمان .

استخلصنا أن ولادة لبيد لا يمكن أن تتقدم سنة ٥٦٠ م ، فيكون شاعرنا والحالة هذه من المعمرين حقا ، ولكنه لم يكد يتجاوز المائة .

وقد فحص البستانى بعض هذه الروايات ، فرفض الروايات القائلة أنه عاش مائة وخمسا وأربعين سنة ، والروايات القائلة بأنه عاش مائة وسبعة وخمسين عاما ، وقال : ان شاعرنا مات أول خلافة معاوية سنة ٤٠ — ٤١ هـ — ٦٦٠ — ٦٦١ م .

فرواية البستانى على هذا الزعم تذهب الى أنه ولد سنة ٥٦٠ م ، وتوفى سنة ٦٦١ م ، فى أول خلافة معاوية ، فيكون قد عاش مائة سنة أو مائة وسنة ، الا أن البستانى لم يثبت لنا الصلة بين النابغة الذبيانى والنعمان ، وخصوصا أن هناك رواية تقول : ان النابغة اتصل بالمنذر ابن امرىء القيس الثالث بن الأسود بن المنذر الأول ٥٠٥ — ٥٥٤ م . (١)

---

(١) العرب قبل الاسلام ص ١٩٦ جورجى زيدان .

بيد أن شعره – أى النابغة – ليس فيه مايدل على هذا الاتصال ،
وأن اتصاله الفعلى كان بالنعمان بن المنذر بن أبى قابوس ، حيث
كان مشهورا بمحبته للأدب والشعر ، وكان طيلة مدة حكمه التى استمرت
حوالى اثنين وعشرين عاما خير راع للشعر والشعراء ، اذ وفد عليه
النابغة ، وكان أثيرا مقدما عنده لايعدل به شاعرا سواه ، ومما يؤيد
ذلك قول النابغة معتذرا له :

أنبئت أن أبا قابوس أوعدني ❁ ولا قرار على زأر من الأسد

على أننا اذا أخذنا بعين الاعتبار بيت لبيد الصريح الذى يقول :

أليس فى مائة عاشها رجل ❁ وفى تكامل عشر بعدها عمر

وتركنا الأبيات القائلة فى تحديد عمره وهو ابن عشرين ومائة سنة
أو ابن الأربعين ومائة سنة كما يروى ، فيمكن أن يكون لبيد قد
أدرك عشرا بعد المائة ، وتكون وفاته أول خلافة معاوية سنة ٤١ هـ المقابل
لسنة ٦٦١ م ، وتكون ولادته سنة ٥٥١م على وجه التقريب ، ويكون قد
عاش ستين عاما فى الاسلام ... واذا علمنا أن لبيدا دخل الاسلام
فى العام التاسع للهجرة سنة ٦٣٠ م ، يكون قد عاش وهو مسلم واحدا
وثلاثين عاما وليس أربعين ولا خمسة وأربعين .

الفصل الثاني

حياة الشاعر ونشأته

==========

التعريف به :

....

هو لبيد بن ربيعة العامري ويكنى " أبا عقيل " ، وقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني نسبه فقال : " هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر ابن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ابن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن غيلان بن مضر " (١)

وأورد أبو زكريا – يحيى بن علي بن محمد الشيباني – المعروف بالخطيب التبريزي نسبه فقال : " هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر ابن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس بن غيلان بن مضر بن الياس بن مضر بن عدنان " (٢)

ونلاحظ هنا أن التبريزي زاد على رواية الأصفهاني " اليـاس " ، وهذا ليس مهما بقدر ما تهمنا سيرة الرجل وآثاره ، وكان والده معروفا بربيعة المقترين ، دلالة على كرمه وجوده ، وتعتبر هذه الخصال من أهم خصال العرب وأحبها اليهم ، وقد لقبه لبيد بهذا اللقب في قوله :

ولا من ربيع المقترين رزئته ... بذى علق فاقنى حياءك واصبرى

---

(١) الأغاني جـ ١٥ ص ٢٩٠ – ٢٩١ الأصفهاني .

(٢) القصائد العشرة ص ١٥

وقد قتله بنو " لبيد " في الحرب التي كانت بينهم كما يذكر أبو الفرج الأصفهاني (١) ، على أنه لم يرد لبني لبيد ذكر ، ولعل الخبر الصحيح بنو أسد كما ذكر ابن قتيبة في الشعر والشعراء اذ قال : " وقتله بنو أسد في حرب ، ويقال : " قتله محمد بن طريفة الأسدى " ، ويقال : " قتله صامت بن الأفقم من بني الصيداء " ، ويقال : " ضربه خالد ابن نضلة ، وتمم عليه هذا وأدرك بثأره ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب أخوه وذلك أنه قتل قاتله ، وفي رواية أخرى ان الذي قتله بن طريف الأسدى يوم ذى علق ولبيد لا يتجاوز التاسعة .

وكان عمه أبو براء عامر بن مالك يلقب بـ " ملاعب الأسنة " وذلك لقول ابن حجر فيه :

ملاعب أطراف الأسنة عامر ⁂ فراح لها خط الكتيبة أجمع

ولقب عمه معاوية بـ " معود الحكماء " ، وذلك لقوله :

أعود مثلها الحكماء بعدى ⁂ اذا ما الحق في الأشياع نابا (٢)

وكان عمه عبيد بن مالك يلقب بـ " الوضاح " ، وعمه سلمى بن مالك يلقب بـ " نزال المضيق " .

فنحن نرى أن له أعماما أربعة ، وأم هؤلاء جميعا هي : " مبية بنت رباح الغنوية " ، ويقال انها ليست هذه بل هي : " ليلى بنت عمرو بن عامر فارس الضحياء (٣) والتي لقبها لبيد في أرجوزته " أم البنين

---

(١) الأغاني ج ١٥ ص ٢٩٠ – ٢٩١

(٢) الأصمعيات ص ١١٢

(٣) ديوان لبيد ص ١٢ دار صادر بيروت .

الأربعة " ، والى هؤلاء يشير في أرجوزته :

يارب هيجا هي خير من دعه ∴ في كل يوم هامتي مقزعة

نحن بنو أم البنين الأربعة ∴ نحن خير عامر بن صعصعة

والواقع أن هؤلاء خمسة وليسوا أربعة ، وهم عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، والطفيل فارس قوزل ، وسلمى نزال المضيق ، ومعاوية معود الحكماء ، وربيعة المقترين والد لبيد ، ولكن قافية الرجز ألزمته ذلك ، أو لأن أباه كان ميتا ، فأسقطه .

اذا آلت لصاحبنا سجايا الجود والطباع الحسنة عن والده ، رجبل على الشجاعة والمروءة التي جبل عليها عمه أبو براء ، كما ورث الحنكة والدهاء عن عمه معاوية ، هذا .. وقد استطاع الرجل بما له من فطنة وذكاء متقد أن يصهرها جميعا في بوتقة واحدة ويذيبها في شخصيته ، فكانت شخصية متكاملة جمعت كل خصال العرب شجاعة واقدام ومروءة وكرم وحلم ...

وتقلبات البيئة وخصبها وجدبها في بعض السنين جعلت منه جوادا كريما مضيافا يهلك ماله في قرى الأضياف ، وهو الذى آلا على نفسه أن يطعم كلما هبت الصبا ، فقد لازمته هذه العادة في الجاهلية والاسلام .

اما امه فهي : تامر بنت زنباع بن جزيمة بن رواحة بن مازن ابن الحارث بن قطيعة العبسية [٢] ، وكانت يتيمة في حجر الربيع بن زياد الذى هجاه الشاعر لبيد في مجلس النعمان ، وكانت قد تزوجت من قيس ابن جزء بن خالد بن جعفر ، فولدت له اربد ، ثم تزوجت من بعده ربيعة

---

(١) القصائد العشرة ص ١٥

(٢) الشعر والشعراء ص ٨٨ ابن قتيبة .

والد لبيد ، لذا فاربد أخوه لأمه وكان أكبر سنا منه .

واربد هذا هو الذى وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عدو الله عامر بن الطفيل فى وفد من بنى عامر لمقابلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوصلوا المدينة فى جمادى الثانية من السنة الثامنة للهجرة ، وقد تواضع مع عامر بن الطفيل على الغدر بالرسول كما يذكر ابن قتيبة ، هذا وقد نفى كارل بروكلمان هذا حيث قال : " وليس بصحيح ماروى من أنه أى عامر بن الطفيل اتفق مع اربد أخى ابيد وكان وافقه على قتل النبى صلى الله عليه وسلم [1] ، وقد ذكر المبرد هذه الحادثة فقال : " وقد وفد عامر ابن الطفيل على النبى صلى الله عليه وسلم ومعه اربد أخى ابيد لأمه ، فقال لاربد : " أنا أشغله لك وأضربه أنت بالسيف من ورائه ، فدعاه الرسول الكريم للاسلام على أن يجعل له أعنة الخيل فقال عامر : ومن يمنعها اليوم عنى ..؟ ولكن ان شئت فلك المدر ولى الوبر أو لى المدر ولك الوبر ، فأعرض عنه الرسول الكريم ، فقال : فاجعل لى هذا الأمر بعدك ، فأعلمه الرسول صلى الله عليه وسلم أن ذلك ليس بكائن ، فقال : فلأملأنها عليك خيلا ورجالا ... فلبشر بخيل أولها عندك وآخرها عندى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يأبى الله ذلك وابنا قيلة يعنى الأوس والخزرج ، ويروى أن سعد بن عبادة قال : يارسول الله علام يسحب هذا الأعرابى لسانه عليك دعنى أقتله ، ويروى أن عامرا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : " لأغزونك على ألف أشقر وألف شقراء ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : " اللهم اكفنيهما " ، وتروى قيس أنه قال : اللهم ان

---

(١) تاريخ الأدب العربى جـ ١ ص ١١٧ كارل بروكلمان .

لم تهد عامرا فاكفنيه ، وقال عامر لاربد : قد شغلته عنك مرارا أفلا ضربته ؟
قال اربد : أردت ذلك مرتين ، فاعترض لي في احداهما حائط من حديد ،
ثم رأيتك في الثانية بيني وبينه أفأقتلك ... ؟ فلم يصل واحد منهما منزله ،
فعامر أصيب بداء الغدة في ديار سلول بن صعصعة ، فجعل يقول : أغدة
كغدة البعير وموتا في بيت سلولية ! أما اربد فارتفعت له سحابة فرمته
بصاعقة فأحرقته (١)

ويقال نزلت فيه الآية الكريمة : " ويرسل الله الصواعق
فيصيب بها من يشاء " صدق الله العظيم ، واصابة اربد بالصاعقة أمر يذكره
لبيد في رثائه لأخيه حيث قال :

أخشى على اربد الحتوف ولا ∴ أرهب نوء السماك والأسد
فجعني الرعد والصواعق بال ∴ فارس يوم الكريهة النجد (٢)

ويروى فجعني البرق .

هذا .. وان توارد هذه القصة ، قصة تواطىء عامر واربد
على قتل الرسول صلى الله عليه وسلم في عدة مصادر وعلى رأسها الكامل في
اللغة والأدب والشعر والشعراء لابن قتيبة ، وكلاهما ثقة ، كما أن ترددها
وذكر أمر الصاعقة في شعر لبيد ، يدفعنا الى الجزم بوقوع التواطؤ بين
عدو الله عامر بن الطفيل وأربد ، ولا يوجد أدنى شك لنفيها أو حتى الشك
فيها ، ومن هنا فان زعم كارل بروكلمان ومن شايعه أمر نذكره ولا نقره ،
ولا يجب الأخذ به أو القياس عليه ... الخ .

---

(١) الكامل في اللغة والأدب ص ٢٧١ - ٢٧٢ المبرد .
(٢) الديوان ص ٤٩ دار صادر بيروت .

علاقته بمعاصريه في الجاهلية والاسلام وصدى ذلك في اتجاهاته :

يعد لبيد من المعمرين الذين عاشوا دهرا طويلا وحياة قد سامها وملها ، وخلال هذه المرحلة الزمنية والتى ناءت بكلكلها عليه في أخريات أيامه ، وخالط أجناسا مجنسة من البشر ، وعايش أناسا كثيرين ، قد اثر فيهم وتأثر بهم ، وقد أكسبته هذه المرحلة خبرة ودراية وممارسة لم تتوفر لغيره ، فكان يتمتع بجانب كبير من الأخلاق والشهامة ، وقد أثنى عليه كل من كتب عنه من القدامى والمتأخرين ، وصفه أبو الفرج : " من أشراف الشعراء المجيدين الفرسان القراء المعمرين (1) ، وكان خير شاعر عز أهله وبرعشيرته ، فهو الذى كان يمدحهم ويذكر مآثرهم ويرثى قتلاهم ويفاخر الناس بما لهم من سؤدد ومجد ، وقد بلغ به الكرم أن صار يطعم ماهبت الصبا ، دأب على ذلك في جاهليته واسلامه ، وذكر القرشى : " وكان لبيد جوادا كريما شريفا في الجاهلية والاسلام وكان قد آلا في الجاهلية أن يطعم ماهبت الصبا ثم أدام ذلك في اسلامه ، ونزل لبيد في الكوفة وأميرها يوم ذاك الوليد بن عقبة ، فبينما هو يخطب الناس اذ هبت الصبا من ناحية الشرق الى الشمال ، فقال الوليد في خطبته على المنبر : " قد علمتم حال أخيكم أبى عقيل وما جعله على نفسه أن يطعم ماهبت الصبا وقد هبت ريحها فاعينوه وأنا أول من يفعل ثم انصرف الوليد ، فبعث اليه بمائة من الجزر واعتذر اليه قائلا :

---

(١) الأغانى ج ١٥ ص ٢٩٨

أرى الجزار يشحذ شفرتيه ∴ اذا هبت رياح أبي عقيل

أشم الأنف أصيد عامريا ∴ طويل الباع كالسيف الصقيل

وفى ابن الجعفري بحلفتيه ∴ على العلات والمال القليل

بنحر الكوم اذ سحبت اليه ∴ ذيول صبا تجاذب الأصيل (١)

ويروى المبرد "تشحذ مديتاه" ، وفى ابن الجعفري بما لديه " (٢)

فلما بلغت أبياته لبيدا قال : " جزى الله الأمير خيرا " ، وأمر ابنته بأن تخرج وتجيب الأمير ، فخرجت - خماسية - فقال لها : أجيبي الأمير فلعمري قد عشت برهة وما أعيا بجواب شاعر ، فأقبلت وأدبرت ، وفى ذلك تقول ابنته :

اذا هبت رياح أبي عقيل ∴ دعونا عند هبتها الوليدا

طويل الباع أبيض عبشميا ∴ أعان على مروءته لبيدا

بأمثال الهضاب كأن ركبا ∴ عليها من بني حام قعودا

أبا وهب جزاك الله خيرا ∴ نحرناها وأطعمنا الثريدا

فعد ان الكريم له معاد ∴ وظني بابن أروى أن يعودا

قال لها لبيد : "أحسنت يا ابنتي لولا انك سألت" فقالت : " ان الملوك لايستحي من مسئلتهم " فقال لها : وأنت في هذا أشعر " (٣)

ويروى كذلك أن الصبا هبت زمن المغيرة بن شعبة فدعا الناس أن يعينوا لبيدا على مروءته (٤) ، وكان المغيرة آنذاك واليا لعمر بن الخطاب

---

(١) جمهرة أشعار العرب ص ٣١ - ٣٢ القرشي .

(٢) الكامل في اللغة والأدب جـ ٢ ص ٥٣

(٣) المرجع السابق ص ٢ ٥ - ٥٣

(٤) طبقات الشعراء محمد بن سلام .

على الكوفة ، وبيد وأنه دعا الى اعانة لبيد ، ولم يعنه هو ، ويعلل الدكتور طه حسين ذلك بأن المغيرة كان ثقفيا حريصا على المال ولأنه كان واليا لعمر بن الخطاب (١) ، أما الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس بن مناف كان أخ عثمان لأمه ، وأمهما هي أروى ابنة كريز بن حبيب بن ربيعة بن عبد شمس ، وأم أروى " البيضاء " بنت عبد المطلب ، فقد كان أميرا من أمراء قريش وواليا على الكوفة لعثمان بن عفان ، وكان سخيا يغلو في السخاء والكرم والجود ويحتفظ بكثير من السنة الجاهلية ، وكان غنيا عظيم الثروة ، وقد رأينا أنه ساعد لبيدا يوم صباه .. الخ .

لبيد أول من أطلق لقب أمير المؤمنين على عمر بن الخطاب :

....

لما فرغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه من توجيه المسلمين الى سياسته ، جلس في المسجد ينتظر آن لهؤلاء أن ينفذوها ، وأقبل عليه أبو عبيدة الثقفي يودعه ليسير الى العراق في الجيش الذي اجتمع حول الراية ، وأقبل في أثره عدد من الناس غير قليل ، وكلهم يحيون خليفة رسول الله ، وقد وجدوا هذا اللقب رغم ترديدهم له ، ثقيل النطق وثقيلا على السمع ، فجعلوا يتحدثون فيما اختلجت به نفوسهم ، وانهم لكذلك اذ أقبل أحدهم " يحيي عمر ويقول : " سلام الله عليك يا أمير المؤمنين " ، وكان القادم لبيد بن ربيعة وصحبته عدي بن حاتم .. هذا وقد روى ابن عساكر (٢) :

( )) ان المغيرة بن شعبة هو أول من دعاه بهذا اللقب .

---

(١) حديث الأربعاء جـ ١ ص ٤٩ ـ ٥٠ ط . التاسعة .

(٢) تاريخ دمشق ابن عساكر .

٢)) ان عمر كتب الى عامله بالعراق أن ابعث الى رجلين جلدين نبيلين اسألهما عن أمر الناس ، فبعث لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم ، فلما بلغا المدينة أناخا راحلتيهما بفناء المسجد ، ثم دخلا ، فاستقبلا عمرو بن العاص فقالا : " استأذن لنا على أمير المؤمنين " فقال عمرو : فدخلت على عمر فقلت : " يا أمير المؤمنين بعث عامل العراق بلبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم .. فقالا : استأذن لنا على أمير المؤمنين ، فقلت : انتما والله أصبتما ، هو الأمير ونحن المؤمنون " .. فبقي هذا اللقب لعمر من ذلك اليوم وجرى الكتاب به .. وان توارد ذلك في روايتين يؤكد أن لبيدا هو أول من أطلق لقب أمير المؤمنين .

وبعد أن آمن لبيد بما جاء به أفضل الخلق من هداية ونور هذب الاسلام من غلوائه وحد من عصبيته ، عكف على القرآن الكريم يتفهمه ويحفظه فكف عن صناعة الفخر والهجاء ، للأثر العميق الذي تركه الدين في نفسه ، واذا كان لبيد لم يفخر بقومه في الاسلام فانه لا يتجاهل سيرتهم وذكرهم وكان يتصدى لمن أراد أن يثلب أعراضهم وينقص حقهم ويدافع عنهم ، ويفخر بهم في بعض الأحايين .

فقد روى الرواة ، قالوا : لم يسمع من لبيد فخر في الاسلام غير يوم واحد ، فانه كان في رحبة غني مستلقيا على ظهره وقد سجى نفسه بثوبه اذ أقبل شاب من غني فقال : قبح الله طفيلا حيث يقول :

جزى الله عنا جعفرا حين أزلقت ... بنا نعلنا في الواطئين فزلت
أبوا أن يملونا ولو أن أمنا ... تلاقي الذي يلقون منا لملت
هم خلطونا بالنفوس وألجأوا ... الى حجرات أدفأت وأظلت

ليت شعري ما الذي رأى في بني جعفر حيث يقول هذا فيهم ... ؟ قالوا:
فكشف لبيد الثوب عن وجهه وقال : يا ابن أخي انك أدركت الناس وقد جعلت لهم
شرطة يدعون بعضهم على بعض ، ودار رزق يخرج الخادم بجرابها فتأتي برزق
أهلها وبيت مال يأخذون منه أعطيتهم ولو أدركت طفيلا يوم يقول لم تلمه " ، ثم
استلقى وهو يقول : " استغفر الله " فلم يزل يقولها حتى نام .(١)

الا أن هذه ليست الحادثة الأولى التي يرد فيها على المتقولين ومفاخرة
الحاسدين من الناس ، فقد حضر لبيد يوما مجلسا من مجالس الوليد بن شعبة
أمير الكوفة ، فسأل الوليد لبيدا عما كان بينه وبين الربيع بن زياد عند النعمان
فأجاب لبيد بقول ينم عن شعوره بأن العهد الجديد لا يرتضي كثيرا من سنن
الجاهلية وعاداتها من فخر وهجاء فقال : هذا كان من أمر الجاهلية ، وقد جاء
الله بالاسلام .

فألح عليه الوليد وعزم عليه ... وكانوا يرون لعزمة الأمير حقا ...
فسار بحديثهم فحدّثه رجل من غني ولنذكر أن الرجل الأول ، الذي حسده من غني
فقال : " ماعلمنا بهذا " ، فقال لبيد : أجل يا ابن أخي لم يدرك أبوك هذا
وكان أبوك ممن لم يشهد تلك المشاهد فيحدثك .(٢)

والواقع أن قول لبيد فيه كثير من التعسف والتحقير وفيه أيضا كثير من
الفخر بمجالس النعمان وان اضطره الموقف الى ذلك .

هذا ... ويبدو أن لبيدا كان يتمتع بأخلاق حسنة وشمائل كريمة ،
وسمعة طيبة بين الناس ، مما جعله مهاب الجانب محترم السيرة ، جعلت بني

---

(١) ، (٢) الأغاني ج ١٥ ص ٢٩١

الديان يردون عليه جاريته — ففي يوم فيف الريح — وكان عند مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، أغارت قبائل مذحج وخثعم ومراد وزبيد بقيادة ذي الغصة الحصين بن يزيد الحارثي على بني عامر ، وكان رئيس عامر — ملاعب الأسنة — فقتل من الفريقين عدد كبير ، وأبلى ملاعب الأسنة يومئذ بلاء حسنا ، وفي ذلك اليوم أخذت جارية سوداء للبيد أخذها بنو الديان ، فلما علموا أنها له ردوها عليه ، وهو لا يدري من ردها فقال :

يا بشر بشر بني اياد أيكم ⁘ أدى أريكة يوم هضب الأبتر
يتراد فه الولدان فوق فقارها ⁘ بفنا الردائف الى أسنة محضر
جاءت على قتب رعدل مزادة ⁘ وأرحتها من طالع الأبصر (١)

وأريكة لعله اسم الجارية .

وقد ذكر لبيد بني الديان هؤلاء فقال :

وبنو الديان لا يأتون لا ⁘ وعلى ألسنتهم خفت نعم
زينت أحلامهم أحسابهم ⁘ وكذاك الحلم زين للكرم (٢)

---

(١) الديوان ص ٨ دار صادر بيروت .

(٢) الأغاني ج ١٤ ص ٩٥

مواقف من حياته

=== ===

١ـ في الجاهلية :

تكتنف حياة لبيد قبل الاسلام كثير من الغموض ، ويخالطها الالتباس بينه وبين لبيد آخر ، وهذا يرجع الى أن النصوص القديمة تتخللها أحداث موضوعة لا تخلو من التخييل والافتعال ، كما أن بعض النصوص لا يعدو كونه خبرا عن مكرمة أو مهاجاته لأعدائه وأعداء قومه أو افتخاره بنفسه أو بهم ، وعلى الرغم من أنه قضى فترة من عمره في الجاهلية ، فان الرواة لم يرووا الا نذرا يسيرا من أحداثه ومواقفه .

وسنعمل جاهدين أن نعرض هذا النذر ونستقرئ منها أخباره من اطار ماتبقى من أشعاره .

حديث بئر معونة

. . . .

كان لبيد من أسرة لها مكانتها في الجاهلية والاسلام ، فوالده ربيعة كان كريما سخيا حتى سمي — ربيعة المقترين — وعمه أبو براء فارس من الفرسان العرب المعدودين حتى عرف بـ — ملاعب الأسنة — وكان عامر قد قدم على المدينة بعد معركة أحد سنة ٦٢٥م ، واصطحب معه فرسين وراحلتين هدية للرسول الكريم ، ويقال أن الرسول صلى الله عليه وسلم

لم يقبل هديته وردها متلطفا ، وعرض عليه النبي صلى الله عليه وسلم الاسلام ودعاه اليه ، فلم يسلم ولم يبعد عن الاسلام وقال : " يامحمد لو بعثت رجالا من أصحابك الى أهل نجد ، يدعوهم الى أمرك رجوت أن يستجيبوا له " فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : " انى أخشى عليهم أهل نجد ، قال عامر : " أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس الى أمرك ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم المنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة المعتق في أربعين رجلا ويقال سبعين من أصحابه في خيرة المسلمين ، فساروا حتى وصلوا بئر معونة وهو أرض بني عامر وحرة بني سليم وكلا البلدين منها قريب ، فلما نزلوها أرسلوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عدو الله عامر بن الطفيل ، فلما أتاه فلم ينظر في كتابه حتى سطا على الرجل وقتله ، ثم استصرخ عليهم بني عامر فرفضوا أن يجيبوه الى مادعاهم اليه وقالوا له : " لن تحقر أبا براء وقد عقد لهم عقدا وجوارا " فاستصرخ عليهم قبائل من سليم من عصية ورعل وذكوان فلبوا طلبه ، فخرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم ، فلما شاهدوهم أخذوا سيوفهم ليذودوا عن أرواحهم ، ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم رحمهم الله ، ثم قتل عمرو بن أمية اثنين من العامريين ثأرا لأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم مع أن العامريين أنفسهم لم يشتركوا في قتل المسلمين ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك لعمرو بن أمية : " لقد قتلت رجلين لأ ديهما " (١)

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٨٤ - ١٨٦ ابن هشام .

ثم قال : " هذا عمل أبي وقد كنت لهذا كارها متخوفا " (١) فبلغ

ذلك أبا براء فكبر عليه صنيع عامر وما أصاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم

بسبب جواره ، وقد أصبحت هذه الحادثة منقصة وسبة لبني جعفر بن كلاب

ولكننا لا نجد لذلك أثرا في أشعاره ، ولعل الذي فقد أكثر من الذي وصل ،

وأن الشعراء عادة يذكرون محامد قومهم لا عثراتهم ، وقد عير سعد بن مالك بني جعفر بيوم بئر معونة فقال :

تركتم جاركم لبني سليم ∴ مخافة حربهم عجزا وهونا

وقد رثى حسان بن ثابت شهداء بئر معونة بقصيدة نذكر منها :

على قتلى معونة فاستهلي ∴ بدمع العين سحا غير نزر

على خيل الرسول غداة لاقوا ∴ ولاقتهم مناياهم بقدر (٢)

ومما تقدم نجد أن يوم بئر معونة كان سبة على بني عامر ووصمة عار

في جبينها ، لأنهم أخفروا أبا براء ولم ينجدوا أصحاب رسول الله صلى الله

عليه وسلم في وقت كان المسلمون في أمس العوز والحاجة الى هؤلاء الأصدقاء

الشهداء .. هذا وقد اغتم أبو براء لأن عامرا أخفرت ذمته ، ثم أخذ بنو عامر

يرتحلون في مواطنهم دون أمر أبي براء ، فلما سأل عن ذلك قيل له : يزعمون

أنه قد عرض لك عارض في عقلك ، فحزن لهذه الكلمة ودعا لبيدا ودعا

قينتيه له ، فشرب وغنتاه ، وقال للبيد : " ان حدث بي حدث ما أنت قائل ؟

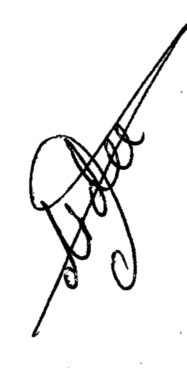
فان قومك يزعمون أن عقلي قد ذهب والموت خير من عزوب العقل ، فأنشد

لبيد أرجوزة نذكر منها :

---

(١) السيرة النبوية جـ ٣ ص ١٨٣ - ١٨٦ ابن هشام .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٠



ياعامـــر بن مالـــك ياعمـــا
أهلكـــت عمـــا وأعشـــت عمـــا .. (١)

من خلـط الرواة (يوم حليمـة)

....

كان لبيد شاعرا فارسا ، آلت اليه الفروسية من عمه أبي براء عامر الملقب بملاعب الأسنة — الى جانب ذلك فانه احتل مكانة رفيعة ومنزلة وقورة في نفوس الكتاب والرواة ، فقد أثنى عليه كل من كتب عنه ، كابن سلام في طبقاته ، وابن رشيق في عمدته ، وغيرهما ، وقد أجمع هؤلاء على شجاعته ومروءته ، ومن أحداث الجاهلية ، أن العداء كان مستحكما بين أمراء غسان وأمراء الحيرة اللخميين ، وقد وجه الحارث الغساني الى الحيرة فارسا مقداما هو لبيد بن عمرو الغساني على رأس جيش لاغتيال المنذر بن المنذر ابن ماء السماء ، وقد وجدت شهامة لبيد الشاعر وفروسيته في نفوس الباحثين مجالا لتصديق كل مايروى عنه ، وتصادف أن الفارس الغساني كان سمي صاحبنا ، فنسبوا عمل الفارس الغساني للشاعر لبيد عن غير قصد ودون أن يدرك هؤلاء الفرق بين الفارسين سنين طويلة ، وأن صاحبنا لبيدا لم يتصل اطلاقا بالمنذر بن المنذر بن ماء السماء والذي يقال أن والده المنذر بن امرىء القيس بن ماء السماء هو صاحب يومي النعيم والبؤس وأخاه هو عمرو بن المنذر وحادثته مع عمرو بن كلثوم مشهورة (٢) ولكن اتصاله

---

(١) ديوان لبيد ص ٢٠٥ دار صادر بيروت .

(٢) العرب قبل الاسلام ص ٢٣٨ — ٢٣٩ جورجي زيدان .

الأكيد بالنعمان بن المنذر الملقب بأبي قابوس صديق النابغة والذي وفد عليه الشاعر كما سيأتي ، وقد حدث هذا الوهم للقدامى كابن قتيبة ، وأخذ عنه البغدادي في خزانته اعجابا بلبيد الفارس الشاعر فأخذوا الحادثة دون تمحيص وروية وتعمق ، والبعض الآخر منهم تطرق الى ذكر الحادثة أو لمسها لمسا خفيفا وسريعا دون أن يتعمقها ويقف على جذورها مغفلين اسم الفارس الكامل واكتفوا بقولهم لبيد دون ذكر اسم أبيه .

وقد أخذ المتأخرون عن الأقدمين دون تأكد وترو كما فعل القلايشي [1] والشنقيطي [2] وأصحاب تاريخ العرب [3] ولم يفطن الى هذه الحقيقة الا محمد بهجت في مجلة الزهراء [4] .

وقد فات الباحثين أن الشاعر لبيدا نفسه لم يذكر في شعره أية اشارة تشير الى هذه الحادثة ، اذ لو كانت صحيحة لجاء ذكرها في شعره ، أو تحدث عنها فيما كان يتحدث في الاسلام اذ أن مثل هذه الحادثة حدث هام في حياة الرجال ، وحلقة من حلقات عمرها ، فغير معقول أن يفوت مثل هذا الحادث دون أن يذكره الشاعر أو يتطرق اليه ولو بطريقة عادية ، الى جانب ذلك فالحادثة في حد ذاتها مدعاة للفخر والاعتزاز — وقد ساهم في هذا الرأي شاعرنا نفسه — فلم يحو في شعره الجاهلي أو الاسلامي مايدل على

---

(١) شرح المعلقات العشرة ص ١٦٠ — ١٦١

(٢) المرجع السابق .

(٣) تاريخ العرب ج ١ ص ١٠٦ د . فيليب حتي وجبرائيل جبور وأدوارد جرجي .

(٤) مجلة الزهراء جـ ٤ ص ٢٧٥ محمد بهجت .

هذه الحادثة المصطنعة ..

ولا ضير بعد هذا أن نذكر نص الخبر الأول الذي جاء به ابن قتيبة حيث قال بعد أن تحدث عن لبيد : " وكان الحارث بن شمر الغساني وهو الأعرج ، وجه الى المنذر بن ماء السماء مائة فارس. وأمّره عليها " أي لبيد " فساروا الى عسكر المنذر وأظهروا أنهم داخلون في طاعته فلما تمكنوا منه قتلوه ، وركبوا خيلهم فقتل أكثرهم ونجا لبيد فأتى ملك غسان فأخبره ، فحمل الغسانيون على عسكر المنذر فهزموهم وهو يوم حليمة ، وحليمة هذه بنت ملك غسان ، وكانت طيبت هؤلاء الفتيان وألبستهم الأكفان وبرنس الأضريج . (١)

ونردف هنا خبر أصحاب تاريخ العرب حيث قالوا : " ووفد بعض شعراء الجاهلية الى أمراء غسان فأحسن هؤلاء وفادتهم وبالغوا في اكرامهم ومنهم لبيد أحدث أصحاب المعلقات السبع سنا ، ولقد قاتل الى جانب غسان يوم حليمة " .

وأوردت بعض المصادر أن الذي اغتيل هو المنذر بن ماء السماء ، وهذا وهم واهم ، وانما قتل المنذر بن ماء السماء يوم أباغ من أيام العرب بين الغساسنة والمناذرة ، وأما الذي اغتيل هو المنذر بن ماء السماء على يد لبيد بن عمرو الغساني ورجاله . (٢)

ومن هنا فاننا نستبعد هذه الحادثة ، وننفي أن تكون قد حصلت مع شاعرنا وبالتالي فهو برئ من دم المنذر هذا .

---

(١) الشعر والشعراء ص ٨٨ ابن قتيبة .

(٢) الكامل في التاريخ ص ١٩٧ ابن الأثير .

في حضـــــرة النعمـــــان

••••••

ماتناقلته الرواة من حياة لبيد قبل ظهور الاسلام ، موقفه من الربيع ابن زياد ومهاجاته اياه في حضرة النعمان وهو مازال حدثا صغيرا ، وكان لهذا الحدث أثر هام في حياته وفي شعره •

أما فيما يختص بحياته ، فقد ارتفعت مكانته وعلا شأنه وأصبح لسان قومه الذاكر لمحامدهم والمدافع عنهم فقد احتل مكانة مرموقة بين قومه وهو مازال في مقتبل العمر •

أما اثره في شعره : فان ماأنشأه في هذه المناسبة عدا كونه يمثل المرحلة الأولى في شعره وصور أسلوبه في الفخر والهجاء ، يعتبر نقلة في شعره في فترة كان مستهينا بنفسه وشعره الى حالة صار فيها معتزا بما يقوله ويلاقي اهتماما به ، ومما يذكر انه كثير ماكان يقول الشعر ولكنه لم يعمل على نشره بين الناس حتى قال معلقته وهاك مطلعها :

عفت الديار محلها فمقامها ∴ بمنى تأبد غولها فرجامها

وذكر ماوقع بينه وبين الربيع بن زياد العبسي وحمزة بن حمزة وحينئذ قال لقومه أظهروها [١] ، وليس صحيحا من أنه كان لسان قومه قبل وفوده على النعمان [٢] ، فاذا كانت هذه الرواية سليمة ، فانها تؤرخ الفترة التي قيلت فيها أي في عهد الصبا وأول الشباب وهذا أمر نستبعده •

---

(١) الأغاني ج ١٥ ص ٢٩٣ الأصفاني •

(٢) ديوان لبيد دار صادر بيروت ص ٧

وقد خصص لبيد بعد ذلك كثيرا من أشعاره للدفاع عن عشيرته وأهلـه ، وكان كثير الاعتزاز بذلك ويتعمد تكراره في أكثر من مناسبة .

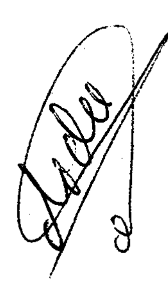
أما الحادثة فقد أوردها الأصمعي ونقلها الأصفهاني وأيدها لبيد فـي شعره .. ومع ذلك نرى الدكتور طه حسين يشير الى أنه يشك في ذلك أو يحـاول على الأقل التشكيك فيها يقول : " ولست أدرى ان كانت القصة كما يصورها الرواة أو لم تكن ، أم كانت شيئا مقاربا لها ، ولكن القصة على أى حال تدل على أن لبيدا كـان عند العرب صاحب فخر ودفاع عن احساب قومه ، فنشأ على ذلك وجد فيه منـــذ صبـــاه "(١).

وهذا الزعم ليس غريبا على الدكتور طه حسين ، وهو الذى ~~يتوسوس~~ يشكك أو حتى يكاد ينفى كل ما قيل في العصر الجاهلى ، ولكن مثل هذه الآراء وتلـك الأباطيل والافتراءات لا تغطى الحقيقة ، ولا تنهط العزيمة ، ما دامت الأدلة تؤيد شاعرية العرب ، وشاعرنا يعتبر شاهدا وبرهانا على ذلك ، فهو يعتبر من أصحـاب المعلقات التى تدل دلالة قاطعة لا تقبل الشك على فترة ازدهر فيها الشعر العربى وتعتبر في نفس الوقت امتدادا لعصر زاهر سبقها كان فيها للشعر دولة وصولة .

وكلنا يعرف أن الشىء لا يولد طفرة ، وانما ينشأ بالتدرج رويـــدا رويدا حتى يصل الى درجة الكمال ، وكذا جاءت معلقة صاحبنا لبيد غاية في الجودة والاتقان والابداع ، وهذا يعنى أنها ألفت في زمن لاحق لوصول الشعر العربـى للقمة ودرجة الكمال .

---

(١) حديث الأربعاء ج ١ ص ٤٤ ط . التاسعة .



ومهما يكن من أمر الدكتور طه حسين في الوسوسة والشك فهو مغال اذا أسر على رفض القصة ، ولكنه مصيب ان كان هناك حادث مشابه لها .

وربما تكون أخبار لبيد مع أعمامه وبلائه معهم وتجربته في هجاء البقلة ، كل ذلك من صنع الرواة ولكن تواردها في شعره يؤكد بشكل قاطع صحتها ... ولندع الرواة يصفونها كما صوروها .

قال الأصفهاني في رواية : حدثنا الأصمعي قال : " وفد عامر بن مالك " ملاعب الأسنة " وكان يكنى ـ أبا براء ـ في رهط من جعفر ومعه لبيد بن ربيعة ومالك بن جعفر وعامر بن مالك عم لبيد على النعمان ، فوجدوا عنده الربيع بن زياد العبسي ، وكان نديما للنعمان مع رجل من تجار الشام يقال له زرجون بن توفيل ، وكان هذا أديبا حسن الحديث والندام ، فاستخفه النعمان فكان اذا أراد أن يخلو الى نفسه ويعاقر الشراب أرسل في طلبه ، والى متطيب له والى الربيع بن زياد ، فلما قدم الجعفريون وكانوا يحضرون الى النعمان لحاجتهم فاذا خرجوا من عنده خلا به الربيع فطعن فيهم ، وذكر معايبهم ونقائصهم وكان بينه وبين الجعفريين دغن وعداوة مرة ، فلم يزل بالنعمان حتى صد عنهم ، فدخلوا عليه يوما فرأوا منه جفاء ، وقد كان يكرمهم ويقربهم ، فخرجوا غضابا ، ولبيد متخلف في رحالهم يحفظ متاعهم ويعدو بابلهم كل صباح يعهدها ويرعاها ، فأتاهم ذات ليلة وهم يتذاكرون أمر الربيع ، فسألهم عنه فكتموه ، فقال : " والله لأحفظت لكم متاعا ولا سرحت

لكم بعيرا أو تخبرونى فيما أنتم ٠٠٠ ؟ وكانت أم لبيد فى حجر الربيع ، فقالوا : خالك قد غلبنا على الملك وصدعنا وجهه فقال لبيد : " هل تقدرون أن تجمعوا بينى وبينه فأزجره عنكم بقول ممض مؤلم لا يلتفت النعمان اليه بعده أبدا ؟

وتمضى القصة تظهر استعداده على ايجاد حل للمشكلة ، فيستصغرونه ، ثم يختبرونه أن يشتم بقلة كانت أمامه (دقيقة القضبان قليلة الورق لاصقة بالأرض تدعى التربة) ، فيجرب شتمها فيقول : " هذه التربة لا تذكى نارا ولا تؤهل دارا ولا تسر جارا ، عودها ضئيل وفرعها كليل وخيرها قليل أقبح البقول مرعى وأكثرها فرعا وأشدها قلعا بادها شاسع وآكلها جائع والمقيم عليها ضائع ، فالقوا بى أخا عبس أرده عنكم بتعس وأتركه فى أمره فى لبس[1] ، وقالوا : نصبح ونرى فيك رأينا ، وقال عامر : " انظروا الى غلامكم هذا فان لاقيتموه صاحيا فهو صاحب ، فرمقوه ، فوجدوه وقد ركب رجلا فوق رجل وهو يكدم وسطه حتى أصبحوا ، فقالوا له : " أنت صاحبه " ، فعمدوا اليه فحلقوا رأسه وتركوا ذؤابة وألبسوه حلة ثم غدا معهم وأدخلوه على النعمان ٠[2] فوجدوه يتغذى ومعه الربيع بن زياد وهما يأكلان ولا ثالث لهما والمجالس مملوءة بالوفود ، فلما فرغ من الغذاء ، أذن للجعفريين فدخلوا عليه وقد كان أمرهم تقارب ، فذكروا الذى جاءوا له من حاجتهم ، فاعترض الربيع بن زياد ، وقال

---

(١) آمال المرتضى ج ١ ص ١٩٠ الشريف الرضى ٠

(٢) الأغانى ج ١٥ ص ٢٩٣

لبيد وقد دهن أحد شقي رأسه وأرخى أزاره وانتعل نعلاً : أبيت اللعن أتأذن لي في الكلام ؟ فاذن له فأنشأ أرجوزة نجتزئ منها :

لا تزجر الفتيان عن سوء الرعة

يارب هيجا هي خير من دعه

ويقول فيها :

ياواهب المال الجزيل من سعه

سيوف حق وجفان مترعه

اليك جاوزنا بلادا مسبعة

اذا الفلالة توحشت في المعمعة

يخبرك عن هذا خبير فاسمعه

فقال النعمان : ماهو ؟ فقال لبيد : مهلا أبيت اللعن لا تأكل معه ، فقال النعمان : ولم ؟ فقال لبيد : ان استه به برص ملمعة ، فقال النعمان : وما على ؟ قال لبيد :

انه يدخل فيها أصبعه

ليدخلها حتى يوارى اشجعه

كأنه يطلب شيئا ضيعه (١)

مع اختلاف في ترتيب أبيات الأرجوزة ، قالوا : فرفع النعمان يده من الطعام وقال : خبثت على طعامي ياغلام مارأيت كاليوم قط ، فأقبل الربيع على النعمان

---

(١) الخزانة جـ ٤ ص ١٧١ ط • بولاق • البغدادي •

فقال : " كذب والله ابن الفاعلة ولقد فعلت بأمه كذا .. وكذا .. فقال له لبيد : " فعل ذلك بربيبة بيته ، والقريبة من أهله ... وان أمي من نساء لم يكن فواعل ماذكرت .

وقضى النعمان حاجة الجعفريين من وقته وصرفهم ، ومضى الربيع الى أهله فكتب اليه : انى قد عرفت أنه قد وقع فى صدرك ما قال لبيد وانى لست بارحا حتى تبعث الى من يجردني فيعلم من حضرك من الناس انى لست كما قال .

فأرسل اليه انك لست صانعا بانتفائك مما قال لبيد شيئا ، ولا قادرا على مازلت به الألسن ، فالحق بأهلك ، ثم أرسل الى النعمان بأبيات من الشعر منها :

لئن رحلت جمالى ان لى سعة ∴ ما مثلها سعة عرضا ولا طولا

بحيث لو وردن لخم بأجمعها ∴ لم يعدلوا ريشة من ريش سمويلا

رعى الروائم أحرار البقول بها ∴ لا مثل رعيكم ملحا وغسويلا

فاثبت بارضك بعدى واخل متكئا ∴ مع النطاسى طولا وابن توفيلا

ويذكر بعض الرواة أن النعمان أجابه بالأبيات التالية ، وأغلب الظن أنها موضوعة :

شرد برحلك عنى حيث شئت ولا ∴ لا تكثر على ودع عنك الأباطيلا

فقد ذكرت بشىء لست ناسيه ∴ ماجاورت مصر أهل الشام والنيلا

الى أن يقول :

فالحق بحيث رأيت الأرض واسعة ∴ فانشر بها الطرف ان عرضا وان طولا

وكان النعمان يتبدى فى ذى الأفاقة ، ولذا نعتقد أن لبيدا لم يفد عليه مرة واحدة مع قومه ، بل تكررت الوفادة ، وكان لبيد يقف مواقف المفاخرة بين يدى النعمان ويخطط بقوسه فى الرمل خطوطا بعدد مفاخره كما كان يفعل الأبطال القروم الغيارى حينئذ ، وفى ذلك يصوره بقوله :

وخصم قيام بالمراء كأنهم ∴ قروم غيارى كل أزهر مصعب
علا المسك والديباج فوق نحورهم ∴ فراش المسيح بالجمان المثقب
تشين صحاح البيد كل عشية ∴ بعوج السراء عند باب محجب (١)

هذا ... وقد أشار لبيد الى ماكان بينه وبين الربيع بن زياد فى مجلس النعمان فقال :

ربيع لا يسقك نحوى سائق
فتطلب الأذحال والحقائق

الى أن يقول :

انك شيخ خائن منافق
بالمخزيات ظاهر مطابق (٢)

ومما يؤيد هذه القصة بالشكل الذى ذكرناه أولا أن لبيدا ذكرها فى شعره فى أكثر من مجال ، قال :

---

(١) الديوان ص ٨ دار صادر بيروت .
(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ٢٩٥

وسقت ربيعا بالقناء كأنه ∴ فريع هيجان يتقي من مخاطر

فأقحمته حتى استكان كأنه ∴ قريح سلال يكتف المشي فاتر (١)

ولم يكتف بذلك بل ذكره في معلقته قال :

وكثيرة غرباؤها مجهولة ∴ ترجى نوافلها وتخشى ذامها

غلب تشذر بالذحول كأنها ∴ جن البدي رواسيا أقدامها

أنكرت باطلها وبؤت بحقها ∴ عندي ولم يفخر على كرامها (٢)

مشيرا بذلك الى ندا دار النعمان ، والمناظرة التي دارت بينه وبين الربيع بن زياد العبسي .

هذا .. وقد انحاز الى جانب الربيع بن زياد ضمرة بن ضمرة بن جابر بن سادة بن نهشل ، بعد أن رجز به لبيد وأوغر عليه نفس صاحب النعمان ، وكان ضمره أبرص ، وكان بنو كلاب قد أسروه في بعض أيامهم ومنوا عليه بالعتق ، فلما أخذ جانب الربيع، قال لبيد يرجز به :

ياضمر يا عبد بني كلاب

يا أير كلب علق بباب

تمكو استه من حذر الغراب

يا ولا القي في سراب

أكان هذا أول الثواب

---

(١) الديوان ص ٤ دار صادر بيروت .

(٢) شرح المعلقات السبع : معلقة لبيد الزوزني .

ويقول فيهـــا :

اني اذا عاقبــت ذو عقـــاب

بصـــارم مذكر الذبـــاب (١)

لبيـــد ومنافرته لعامر بن الطفيـــل

....

جاء ذكر لبيد في الأخبار المروية على ألسنة الرواة عـــن المشادة العنيفة التي وقعت بين سيدين عظيمين من أشـــراف آل عامر : عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة ، وقد كان لبيد كغيـره من الشعراء الجاهليين ، يدافع عن بني جلدته وعشيرته ، ويفاخـــر بهم ويسجل أيامهم ومواقعهم ومآثرهم ، وقد حدثت مشادة شديدة بين هذين القرمين ، وعظم الشر وزلقت الأقدام وفلتت الألســـنة وأوشكت أن تسل السيوف ، وتهوى على الرقاب ، وينشب قتـــال مرير ، تفاخرا وتنابذا وتبادلا لاذع القول وقارص الكلام ، وأفحـــش الشتائم وألعن السباب ، ثم وافقا أن يحكما أبا سفيان بن حرب الأموي القرشي ، فلم يقل بينهما شيئا ، وكره ذلك لحالهما وحال عشيرتهما ، وقال : أنتما كركبتي البعير الأدرم " ، فقالا : " فأينا اليـــمين؟ قال : كلاكما يمين " وأبى أن يحكم بينهما ... فانطلقا الى أبي جهل

---

(١) شرح السبع الطوال ص ٥٠٨ ابن الانباري .

ابن هشام ، فأبى أن يحكم بينهما ، وقد كانت العرب تحاكم الى قريش ، وبعد أن يئسا فى قريش توجها الى غيرها ، فأتيا عيينة بن حصن بن حذيفة ، فأبى أن يقول بينهما شيئا ، فأتيا الى غيلان بن سلمة الثقفى فردهما الى حرملة بن الأشعر المرى ، فأبى أن يقول بينهما شيئا .

وانتهى بهما المطاف الى هرم بن قطبة ، وكان قد اتفق الفريقان المتنافران على مائتين من الابل ، مائة للحكم ومائة لمن يحكم له القضاء ، الا أن الحكم لم يفضل أحدهما على الآخر ، ورفض أجر التحكيم ، وانما نحر عنهما الابل فأطعم عنهما الناس (١) .

والى هذه الحكومة يشير لبيد فى قوله :

يا هرم ابن الأكرمين منصبا

انك قد وليت حكما معجبا

فاحكم وصوب لأي من تصوبا

ان الذى يعلو عليها تترتبا

اخيرنا عما وأما وأبا

وعامر خيرهما مركبا

وعامر أدنى لقيس منسبا (٢)

ولبيد هنا قد ناصر عامر بن الطفيل لأنه من الأقربين اليه ودفاعه عنه عن حسب تليد ومكرمة قومية ، فى حين أن الحطيئة الشاعر قد انحاز الى

---

(١) الأغانى ج ١٥ ص ٥٥ ، مهذب الأغانى ج ٢ ص ٦٨ .

(٢) المرجع السابق .

علقمة وناصره ، وكان انتصار الأجير الذى باع لسانه لولى نعمته ، فاندفع الحطيئة تلبية لرغباته وأطماعه ، واتهم نفسه فى هذا الخلاف الذى استحكم أمره ، وشتان بين الموقفين ، فقال فى ذلك ماشاءت له أطماعه أن يقول، وأدرك الحطيئة الإسلام ، وأراد أن يدرك صاحبه ويكرمه الا أن الموت حال بينه وبين مارغب ، فقال فى ذلك أبياتا مشهورة منها هذا البيت :

وماكان بينى لو لقيته سالما ∴ وبين الفتى الا ليال قلائل

وقد روى صاحب الأغانى أن هذه القصة ذاع أمرها فى الاسلام ، وتحدثت العرب كما تحدثت عنها فى الجاهلية ، ولما سأل عنها عمر بن الخطاب هرم بن قطنة ، أبى أن يخبره عنها حفظا لأسرار الناس ، فشكر له عمر له أمانته ووفاءه ، (١)

أما لبيد فقد قال فى ذلك قصيدة نذكر منها :

لما دعانى عامر لأسبهم ∴ أبيت وان كان ابن عيساء ظالما

ويقول :

وانبش من تحت القبور أبوة ∴ كراما هم شدوا على التمائما

لعبت على أكتافهم وحجورهم ∴ وليدا وسمونى مفيدا وعاصما

بلى : اينا ما كان شرا لمالك ∴ فلا زال فى الدنيا ملوما ولائما

وقال أيضا فى المنافرة بين عامر وعلقمة أرجوزة منها :

---

(١) حديث الأربعاء جـ ١ ص ٤٥ طه حسين .

ياهـــــرما وأنت أهـــــل عـــد ل

ان ورد الأحـــــوص ماء تهلـــــى

والأحوص جد علقمة بن علاثة ويروى : هل ينزعنى حسبى ونضلى ، بدلا من قوله : ان ورد الأحوص ماء تهلى .

لبيـــد والنابغـــة الذبيانـــى

....

ومن مواقف لبيد فى الجاهلية خبر التقائه بالنابغة الذبيانـــى على باب النعمان بن المنذر ، فيروى عن رواية عن حماد الراوية [1] ، أن النابغة قال عن لبيد وكان حدثا صغيرا مع أعمامه على باب النعمان بـــن المنذر ، فنسب له ، فقال مخاطبا اياه : ياغلام ان عينيك لعينـــا شاعر ، أفتقرض من الشعر شيئا ؟ قال : " نعم ياعم ، قـــــال النـــابغة : فانشدنى شيئا مما قلته " ، فأنشده قوله :

ألم تربع على الدمن الخوالى ∴ لسلمى بالمذانب فالقفال

فقال له : ياغلام أنت أشعر قومك ، زدنى ، فأنشده :

طلل لخولة بالرسيس قديم ∴ فبمعاقل فالأنعمين رسوم

فضرب النابغة يديه على جنبيه وقال : اذهب فأنت أشعر قيس كلهـــــا أو قال هوازن كلها .

---

(١) الأغانـــى جـ ١٥ ص ٢٩٧

ونلاحظ هنا أثر الافتعال واضح في هذا اللقاء ، فقد يكون النابغة قابل لبيدا وقد يكون أنشده بعضا من شعره ، الا أن صاحب الأغاني يروى في نفس الصفحة السابقة رواية أخرى ويسندها الى حماد الراوية وابن لقيط ، وحماد هذا معروف بالتزييد ، وخاصة أن الرواية التى يأتى بها تجعل النابغة يسأل عبد الله بن قتادة عن لبيد وعن أى الحاضرين أشعر ، فيجيبه أن الفتى الذى شهد من أمره كذا وكذا ، فيأمره أن يجلس حتى يخرج لبيد من مجلس النعمان ، وعندما يخرج يسرع النابغة لدعوته ويطلب أن ينشده فينشده ، فيستزيده حتى ينشد قوله :

عفت الديار محلها فمقامها ∴ بمنى تأبد غولها فرجامها

فيقول له النابغة :"اذهب فأنت أشعر العرب " وهنا يجب أن نتأنى ونتروى لنتأكد متى أنشد لبيد قصيدته " عفت الديار " وهى مطلع معلقته التى قالها ولا شك فى فترة لم يكن فيها حدثا صغيرا على أقل تقدير وأنه قالها بعد ان استقام له عمود الشعر وأصبح فحلاً من الفحولة وسار الشعر طوع بنانه .

وأن قصيدته " ألم تربع على الدمن الخوالى " فهى من أجود أشعاره الجاهلية بعد المعلقة ، نذكر أن صاحبنا خرج من حضرة النعمان ولا بد أنه خرج بعد أن هاجى الربيع بن زياد ، ولنذكر أن القصيدة "المعلقة " تشير الى هذه المهاجاة ، فمتى قالها ؟ أيجوز أنه ارتجلها للنابغة وهو خارج من لدن النعمان ؟ أم أنه تلاها عليه

وهى قديمة لديه وهذا ضرب من المحال ٠٠ الخ ؟ فالمعلقة قوية مسبوكة الجوانب ، خصبة المعانى ، رصينة الأسلوب ، مما يدفعنا بالقول بأن لبيدا قالها فى وقت قوي فيه عوده الشعرى ، وصقلت شاعريته ، أما قصيدته " اللامية " " ألم تربع " فهى خالية من ذكر الربيع بن زياد ، ولا يوجد بها شىء يومىء الى مقابلته النعمان والمثول بين يديه ، فهل يعقل بعد هذا بأن نقول انه أى لبيد قال قصيدتيه السابقتين يوم تلك الزيارة ، وهى كما نعتقد الزيارة الأولى له ، بيد أن المنسجم مع طبيعة الأحداث والأشياء أن الرواية الأولى قريبة من الواقع ، وأن الرواية الثانية تزيد هذا الجو المسرحى الذى التقى النابغة بلبيد ٠٠٠ وفات تحقيق الفرق الزمنى لعمر القصيدتين ٠٠٠ وقد استصغر هؤلاء أن يكون لبيد أشعر فتى ، بل أرادوا أن يكون أشعر العرب وذلك بانشاده المعلقة ٠

ومن هنا فاننا نستبعد أن يكون لبيد قد أنشد النابغة قصيدتيه " المعلقة واللامية " عند باب النعمان كما ادعى هؤلاء وهو مازال فى مقتبل عمره يوم وفوده على النعمان مع وفد الجعفريين ، ولكن يجوز أنه قالها فى زيارات تالية ، وخصوصا أن زيارته تكررت كما أشرنا آنفا ٠٠٠

وبعد ٠٠٠ فقد استعرضنا أخبار ومواقف لبيد قبيل الاسلام ، وهى بدون شك أخبار نادرة وخاصة أنه عاش القسم الأكبر من عمره فى زمن الجاهلية وأن هذه الأحداث لا تتناسب مع المدة الكبرى التى عاشها لبيد ، ويرجع السبب فى ذلك الى ضياع القسم الأكبر من أشعاره فقدت معظم أخباره ٠

٢ ـ مواقفـه في الاسـلام

===== =====

لقد كانت الأخبار القليلة التي رويت عن حياة الشاعر لبيد قبل الاسلام ، تصوره رجلا كريما حريصا على احساب قومه ذاكرا لأمجاد قومه باراً بهم ، والأحداث القليلة التي تروى عن حياته بعد أن أسلم ، تصفه كلها رجلا كريما صافي الطبع حلو الشمائل معتدل المزاج ، شديد الورع والتقوى باراً بالناس جميعا ، وقد انصرف عن أكثر ماتصود من حياة الجاهلية مما نهى عنه الاسلام ، فنراه كريما جوادا ، لأن الاسلام يحب الكرم والجود ، ونراه خاشعا متواضعا ، لأن الاسلام يحب الخشوع والتواضع ، ونجده قد انصرف عن الهجاء ، لأن الاسلام يكره التفاخر بالأحساب والتنابز بالألقاب وثلم أعراض الناس ، أما سنة دخوله الاسلام لم يذكرها أحد بالتدقيق فصاحب الأغاني (١) وصاحب الشعر والشعراء (٢) يجمعان على أن لبيدا قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد بني كلاب قبل وفاة أخيه أربد وعامر بن الطفيل ، فأسلم وهاجر وحسن اسلامه ونزل الكوفة أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأقام بها ومات بها ، فيكون ذلك سنة ٩ هجرية الموافق ٦٤٠ ميلادية .

ولعل الراجح من أمر اسلامه أنه أسلم بعد وفاة أخيه أربد وعامر بن الطفيل ، وذلك في أواخر سنة ٨ هـ أي أن اسلامه كان في

---

(١) الأغانـي ج ١٥ ص ٢٩١

(٢) الشعر والشعراء ص ٨٨ ابن قتيبة .

قومه
وقت مبكر قبل السنة التاسعة ، وصار يدعو قومه الى الاسلام مما جعله
حيث
عرضة لهجاء سراقة بن عوف بن الأحوص حيث يقول :

وجئت بدين الصابئين تشوبه ... بألواح نجد بعد عهدك في عهد

الصابئة
وكلمة الصابئين مما كان شائعا في ذلك الوقت أنها تطلق على كل من أسلم
وتابع الرسول .

ويعزز هذه الرواية أن لبيدا قد رثى أخاه أربد كثيرا فلو كان
مسلما لما أمعن في رثاء أخيه على تلك الصورة ، وهنالك رواية أخرى
تقول : " أن لبيدا عندما دخل المدينة ملتمسا دواء لعمه أبى براء
فسمع تلاوة القرآن الكريم ، فيكون هذا بعد رجوعه من لدن الرسول أى
فى أواخر سنة ٨ هـ ، وكلا الروايتين محتملة ، وهذا يعنى أن لبيدا
عاش فى الاسلام واحدا وثلاثين سنة على الأكثر ، لا أربعين أو خمسة
وأربعين سنة كما يزعم غلاة المؤرخين .

وبعد أن أسلم لبيد امتلأت نفسه بهدى الاسلام ، فزهد وتنسك
ثم هاجر الى الكوفة أيام عمر بن الخطاب ، فأقام فيها منقطعا الى البر
والخير والتقوى وقد جمع القرآن (١) وانصرف اليه وعد من القراء (٢) ،
ويبدو أنه لم يعد متحمسا لقول الشعر كما كان قبل الاسلام وان لم يتركه
كما زعم معظم الرواة .

ويذكر صاحب الاستيعاب أن لبيدا وعلقمة بن علاثة من العامريين

---

(١) جمهرة أشعار العرب ص ٣١ أبو زيد القرشي .

(٢) الأغانى ج ١٥ ص ٢٩٩

من المؤلفة قلوبهم [١] ، ويستغرب ويدعو للتساؤل أن ترد رواية أن لبيدا وفد على النبي صلى الله عليه وسلم مع وفد من قيس ، لما اشتد الجدب على مضر بدعوة من النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال يخاطب الرسول عليه السلام ، ولم يرو ذلك السكري ونسبها القالي في كتاب البارع لاعرابي ولعله أصوب :

أتيناك ياخير البرية كلها ∴ لترحمنا مما لقينا من الأزل

أتيناك والعذراء يدمى لبانها ∴ وقد ذهلت أم الصبي عن الطفل

ويقـــول :

ولا شيء مما يأكل الناس عندنا ∴ سوى الحنظل العامي والعلهز الفسل

وليس لنا الا اليك فرارنا ∴ وأين يفر الناس الا الى الرسل

فان تدعو بالسقيا وبالعفو ترسل الـ ∴ سماء لنا والأمر يبقى على الأصل

ولم يرد لهذه الرواية ذكر في الروايات التي تناقلت أخبار لبيد ، لا سيما أن الرواية تزعم أن الوفد من قيس ومنهم لبيد ، وقد يكون هناك لبيد آخر والخبر كما ذكره الرياشي ، وهو في ديوان شعره من غير رواية أبي سعيد السكري . [٢]

فاذا صحت هذه الرواية السابقة للبيد ، فيكون في رواية الرياشي شيء من الوهم ، ويكون اسلام لبيد من جهة ثانية أقدم مما نظن ، وتكون

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ٣٢٧ ابن عبد البر ، والسيرة النبوية لابن هشام جـ ٤ ص ١٠٣ تحقيق طه عبد الرؤوف .

(٢) الاصابة جـ ٣ ص ٣٢٦ العسقلاني ط . م .

وفادته هذه المرة على الرسول صلى الله عليه وسلم وهو مسلم ، فالأبيات تدل دلالة واضحة على أنه آمن وصدق بما عند أفضل الكائنات من خبر السماء .

أما وفد بني عامر على الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان عام الوفود فلم يكن فيه لبيد ، لأن لبيدا كان مخالفا لعامر بن الطفيل ومن معه .

وقد روى عبد الملك بن عمير عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ❊ وكل نعيم لا محالة زائل

ويعلق ابن عبد البر على ذلك فيقول : " وهو شعر حسن فيه مايدل على أنه قاله في الاسلام " .(١)

---

(١) الاستيعاب جـ ٣ ص ٣٢٤ ابن عبد البر .

هل ترك لبيد الشعر في الاسلام ؟

....

يكاد الرواة ومؤرخو الأدب يجمعون على أن لبيدا قد هجر الشعر منذ أن دخل الايمان قلبه ، ويقولون أنه لم يقل الا بيتا واحدا اختلفوا فيه ، ونسبه بعضهم لغيره ، فمنهم من يقول أنه قال :

الحمد لله اذ لم يأتني أجلي ∴ حتى لبست من الاسلام سربالا

ويروى "اكتسيت" ، وقال بعضهم ان هذا البيت ليس له ، بل هو لقروة بن نفاثة السلولي (١) ، وقروة هذا هو القائل ، القصيدة المشهورة التي مطلعها :

الا كل شيء ما خلا الله باطل ....

علما بأن هذا البيت من قصيدة طويلة جاءت في ديوان لبيد ومطلعها

ألا يسألان المرء ماذا يحاول ∴ أنحب فيقضى أم ضلال وباطل

ومع هذا فالرواة أنفسهم يذكرون في سند عبد الملك بن عمير عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد :

الا كل شيء ما خلا الله باطل ...

أي أنهم يقولون ان هذا البيت للبيد وليس لقروة كما زعموا ، ويجوز

---

(١) معجم المرزباني ص ٣٣٩

أن يكون عروة قد ضمن البيت في شعره ، ووضع الرواة هذا البيت مع القصيدة التي انسجم معناها الديني معه وهذا البيت .

والرواة مع ذلك يذكرون أن لبيدا كان ينشد قريشا شيئا من شعره فلما وصل الى البيت : " ألا كل شيء ما خلا الله باطل " فقال عثمان بن مظعون : صدقت ، فقال لبيد : " وكل نعيم لا محالة زائل " ، فقال عثمان : كذبت ، فلم يدر القوم ما عنى ، فأشار بعضهم على لبيد أن يعيد ، فأعاده ، فصدقه في النصف الأول وكذبه في الآخر ، لأن نعيم الجنة لا يزول ، فقال لبيد : يامعشر قريش ، ماكان مثل هذا يكون في مجالسكم ، فقام أبي بن أبي خلف أو ابنه ، فلطم وجه عثمان ، فقال له قائل : " لقد كنت في منعة من هذا بالأمس " ، فقال : " ماأحوجني هذه الصحيحة الى أن يصيبها ماأصاب الأخرى في الله " (١) .

وهذا يعني أن الشعر للبيد ولو لم يكن له لما أنشده قريشا ، ويبدو أن الرواة عندما نقلوا خبر هجر لبيد الشعر أرادوا أن ينسبوا الشعر الذي وجدوه له الى غيره لتنسجم الرواية ، وقالوا أن البيت الذي قاله لبيد في الاسلام لم يكن ذلك بل هو قوله :

ماعاتب المرء الكريم كنفسه •• والمرء يصلحه الجليس الصالح (٢)

---

(١) الاصابة جـ ٣ ص ٣٢٦ العسقلاني .

(٢) المرجع السابق ص ٣٢٦ ، الخزانة جـ ١ ص ٣٣٧

ويروى "الحر" ، ودعما لهذا الرأى ، ذكر المؤرخون روايات أخرى منها أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب الى المغيرة بن أبى شعبة ، الذى كان واليا له على الكوفة ، يسأله عما أحدثه الشعراء من الشعر فى الاسلام ، وأراد عمر رضى الله عنه من وراء ذلك أن يمتحن الشعراء ويسأل عما أحدثوه فى الاسلام من الشعر ، ، فكتب بذلك الى واليه على الكوفة ، فسأل الأغلب العجلى فقال :

أرجزا تريد أم قصيدا ∴ لقد طلبت هينا موجودا

ثم أرسل الى لبيد فقال أنشدنى فقال : ان شئت مانهى عنه "يعنى الجاهلية" ، فقال : أنشدنى ماقلت فى الاسلام فانطلق فكتب سورة البقرة ثم أتى بها فقال : أبدلنى الله هذه فى الاسلام مكان الشعر[1] ، فكتب المغيرة بذلك الى عمر ، فنقص من عطاء الأغلب خمسمائة وجعلها فى عطاء لبيد ، فكان عطاؤه الفين وخمسمائة .

فكتب الأغلب الى عمر يسأله عن الخمسمائة هل هى جزاء طاعته وتلبية ماأراد ؟ فرد عليه الخمسمائة وأقر لبيدا على ألفين وخمسمائة ، ويبدو أن لبيدا عرف سر سؤال عمر أو المغيرة ليختبر ايمان الشعراء وتمسكهم بالاسلام فأجاب اجابة فيها الكثير من التأدب والفطنة والذكاء .

وتذهب بعض الروايات الأخرى أن عمر سأل لبيدا مباشرة دون

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ٢٩٨

وساطة المغيرة فقال يوما : " ياأبا عقيل أنشدني شيئا من شعرك فقال : " ماكنت لأقول الشعر بعد أن علمني الله البقرة وآل عمران [1] ، وفي هذا الصدد قالوا : " لما تولى معاوية أحب أن ينقص الخمسمائة التي كان عمر قد زادها في عطاء لبيد ، محتجا بأن عطاءه وعطاء الأغلب سواء ، وأن الفودين " يعني الألفين " فما بال العلاوة ؟ فاستمهله لبيد قائلا : انما أنا هامة اليوم أو غدا فاعدني اسمها فعلي لا أقبضها أبدا فتبقى العلاوة والفودان ، فرق له معاوية وترك عطاءه على حاله ، قالوا : مات ولم يقبضها [2].

وكان الرواة قد ذكروا ذلك حتى تنسجم الرواية القائلة بأن لبيدا ترك الشعر بعد اسلامه ، وانه لم يقل في الاسلام الا بيتا أو بيتين والحقيقة كما ستظهر على عكس ذلك .

هذا ماذهب اليه المتقدمون من المؤرخين والكتاب ، وقد شايعهم أكثر من كتب عن لبيد نقلا عن المتقدمين ، دون أن يرجعوا الى بعض شعره الاسلامي ويحللوه ، ودون أن ينتبهوا الى الشعر الذي نقلوه هم في بعض معرض الرواية ، وبين يدي الباحث تركة ليست بالهينة من شعره الاسلامي .

---

(١) الاصابة ج ٣ ص ٣٢٧ ، والشعر والشعراء .

(٢) الأغاني ج ١٥ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، والشعر والشعراء ص ٨٩

وقد تنبه أبو عمرو الى أن القصيدة التي منها بيت لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ∴ وكل نعيم لا محالة زائل

فيها مايدل على أنه قالها في الاسلام وذلك قوله :

وكل امرئ يوما سيعلم سعيه ∴ اذا كشفت عند الاله المحاصل(١)

ولو أن النقلة كانوا يردون على أبي عمرو بأن ماقاله لبيد فيه دلالة على أنه كان يؤمن بالبعث مثل غيره من عقلاء الجاهلية كقس بن ساعدة الايادي وزيد بن عمرو ، كان ذلك معقولا ، وقد برر ابن عبد البر قول الذين قالوا : أن لبيدا لم ينظم شعرا منذ دخل الاسلام قلبه ، بأنهم يريدون شعرا كاملا لا تكميلا لقصيدة سبق نظمه لها(٢) ، وهذا ولا شك اقرار بأن لبيدا قال شعرا في الاسلام .

وأغلب الظن أنه أعرض عن قول الشعر في الاسلام فلم يتخذه صناعة وحرفة أي مهنة ، ولم يكثر من انشاده ، ومال الى تلاوة القرآن الكريم ، فجاء شعره الاسلامي متضمنا الخير والصلاح ، فقد فطن الى ذلك العالم اللغوي أبو عمرو بن العلاء حيث قال : " ما أحد أحب اليّ شعرا من لبيد بن ربيعة لذكره الله عز وجل ، ولاسلامه ولذكره الدين والخير ولكن شعر رحى بزر "(٣)

---

(١) الاصابة جـ ٣ ص ٣٢٦ أبو عمرو العسقلاني .

(٢) الاستيعاب جـ ٣ ص ٣٢٦ ابن عبد البر .

(٣) الموشح ص ٧١ المرزباني .

ويتخذ من ذلك أن لبيدا قال الشعر في الاسلام ، ولم يهجره كما زعم الكثيرون ، ويرى – كارل بروكلمان – من أن لبيدا لم يترك الشعر في الاسلام ولم يهجره ، بل كان في نظره شعره مطبوعا بطابع الوحي ، " وقيل أن لبيدا لم يقل شعرا في الاسلام ولم يهجره ، ، وليس هذا بصحيح ، فان كثيرا من شعره مطبوع بطابع الوحي "(١)

هذا وقد ذكر الرواة أنه شكا من الدهر حين تطاول به الزمن فقالوا أنه حين بلغ سبعا وسبعين سنة قال :

قامت تشكى الى الموت مجهشة ∴ وقد حملتك سبعا بعد سبعينا

فان تزادى ثلاثا تبلغى أملا ∴ وفى الثلاث وفاء للثمانينا

وقد مر بنا في تحقيق عمر لبيد أنه عاش في الجاهلية ستين عاما وخمسين عاما في الاسلام ، فاذا كان اسلامه في السنة التاسعة للهجرة ، كان شعره هذا الذي يذكر فيه سبعا وسبعين من السنين قد قاله وهو مسلم أو على وشك أن يسلم ، فاذا علمنا أنه قال حين بلغ التسعين :

كأنى وقد جاوزت تسعين حجة ∴ خلعت بها عن منكبى ردائيا

فيكون من الثابت أن هذا الشعر قاله وهو مسلم .

وقد روى صاحب الاصابة أن لبيدا أنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم قصيدة يستعطفه فيها دعوة الله في استنزال الغيث ويشكو الجدب ،

---

(١) تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ١٤٥ كارل بروكلمان .

فاذا صحت هذه الرواية يكون هذا الشعر اسلاميا ، ونستطيع أن نعتبر كافة شعره ، في رثاء أخيه أربد شعراً اسلاميا ، فقد مات أربد واسلم لبيد بعد وفاته بقليل وظل يرثيه دهرا ، وقد ذكر الرواة أن لبيدا قال شعرا قبل أن يموت يعلم فيه ابنتيه كيف تؤديان اليه حقه فى الحزن عليه بعد أن يموت ، نذكر منها :

تمنى ابنتاى أن يعيش أبوهما ∴ وهل أنا الا من ربيعة أو مضر
ونائحتان تندبان بعاقل ∴ أخا ثقة لا عين منه ولا أثر
وفى ابنى نزار أسوة ان جزعتما ∴ وان تسألاهم تخبرا فيهم الخبر
وفيمن سواهم من ملوك وسوقة ∴ دعائم عرش خانه الدهر فانقعر
فقوما ، فقولا بالذى قد علمتما ∴ ولا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر
وقولا هو المرء الذى لا حليف له ∴ أضاع ولا خان الصديق ولا غدر
الى الحول ثم اسم السلام عليكما ∴ ومن يبك حولا كاملا قد اعتذر (١)

ويروى : فان حان يوما أن يموت أبوكما ، فلا ... البيت .

انظر .. كيف علم الشاعر ابنتيه ؟ وكيف أنه رسم لهما مايجب أن تعملاه فى الحزن عليه ، فهو لا يريد منهما الا أن تذكراه بالخير ، بأنه لم يغدر ولم يخن حليفا ، وهو يأبى الا أن يكون معتدلا فى هذه الوصية ، فلم يكلف ابنتيه مالا طاقة لهما فيه ، فهو يريد أن تذكراه وأن تبكياه حولا فاذا ما انتهى الحول فسلام عليهما ، ولا بأس بعد ذلك أن يسدل بينهما

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ٢٩٨ ، حديث الأربعاء جـ ١ ص ٤٨ ط . تاسعة .

ستار النسيان دون لوم .. ومن جميل مايروى أن ابنتيه كانتا عند وفاته تلبسان ثيابهما فى كل يوم ، ثم تأتيان مجلس بنى جعفر بن كلاب فترثيانه ولا تندبانه ، فاستمرتا على هذه الحالة حولا ثم انصرفتا وهما معذورتان ، نعم .. ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر ، الا أن الرجولة الحقة والمروءة التامة تلك التى تدمها صاحبنا وهو بين يدى الموت فى ساعة احتضاره ، فقد قال لابن أخيه - ولم يكن له ولد ذكر - : " يابنى ان أباك لم يمت ولكنه فنى ، فاذا قبض أبوك فقبله القبلة وسجه بثوبه ولا تصرخن عليه صارخة ، وانظر جفنتى اللتين كنت أصنعهما فاصنعهما ، ثم احملهما الى المسجد فاذا سلم الامام فقدمها اليهم ، فاذا طعموا فقل لهم أن يحضروا جنازة أخيهم ، وأنشد قصيدة نجتزىء منها :

أنبئت أن أبا جنيـــف لا ملي فى اللا ئمينـــا
ابـــنى هل أحسست اعـــمامى بنى أم البنينـــا
وأبى الذى كان الأرا مل فى الشتاء له قطينـــا

ويقول :

واذا دفنت أباك فاجـــعل فوقه خشبا وطينـــا [1]

وأما الدكتور طه حسين [2] ، فيأبى الا أن يفسد هذه الوصية الجميلة المؤثرة بطريقته فى الشك والافساد معتمدا على الوهم الذى ذهب اليه

---

(١) الأغـــانى ج ١٥ ص ٢٩٧

(٢) حديث الأربعاء ج ١ ص ٥٩

ابن سعد في الطبقات حيث ذكر أن لبيدا هاجر الى الكوفة مع بنيه ، فلما مات في صحراء بني جعفر عاد بنوه الى البادية فأقاموا فيها ، مع أن أبا الفرج وأصحابه يزعمون أن لبيدا لم يكن له بنون ، والواضح أن ابن سعد ذكر كلمة " بنيه " معمما القول قاصدا بذلك أهله دون أن يقصد تخصيص الأبناء دون البنات أو أطفالهم ، ومع ذلك فقد يقع الرجل في الوهم ، والذي يعنينا هنا أنه قال شعرا عندما حضرته المنية .

ومهما يبلغ الشك الذي ذهب اليه الدكتور طه حسين في كتابه " حديث الأربعاء " فلن يستطيع أن يرفض القصيدة كلها بأي حال من الأحوال ، فاذا أمكن القول ان بعض أبيات القصيدة أو قسما منها منحول موضوع ، فلن نرفض القصيدة كلها ، لتواردها على ألسنة الرواة والعلماء .

وقد ورد في ديوان لبيد الأبيات التالية :

ان تقوى ربنا خير نفل ❊ وباذن الله ريثي وعجل

أحمد الله فلا ند له ❊ بيديه الخير ما شاء فعل

من هداه سبل الخير اهتدى ❊ ناعم البال ومن شاء أضل

ونرى أثر القرآن الكريم في هذه الأبيات واضحا ، فلو لم يكن لبيد قد قرأ قوله تعالى : " ليس كمثله شيء " ، وقوله : " وما تشاءون الا أن يشاء الله " ، وقوله : " يضل من يشاء ويهدي من يشاء " ، لما استطاع طرق هذه المعاني مصادفة ، فمن الواضح أنه قال قصيدته هذه بعد أن قرأ القرآن وتأثر به ، الا اذا ثبت أنه يحفظ القرآن الكريم ومدركا لمعانيه قبل أن يسلم ، وهذا ضرب من المحال .

وقد جاء في الديوان قصيدة مطلعها :

كبيشة حلت بعد عهدك عاقلا ∴ وكانت له خبلاً على النأى خابلا

ورد فيها هذا البيت :

رأيت التقى والحمد خير تجارة ∴ رباحا اذا ما المرء أصبح ثاقلا

والتقى والحمد الفاظ اسلامية ، والبيت يعيد الأذهان الى قوله تعالى : " فما ربحت تجارتهم " ، وكذلك قوله بعد هذا البيت :

وهل هو الا ما ابتنى في حياته ∴ اذا ما قذفوا فوق الضريح الجنادلا

وهذا مأخوذ من قوله تعالى : " وان ليس للانسان الا ما سعى " .

أما القصيدة التى ذكرها الرواه ، أنها تنسب لعروة بن نفاثة السلولي ومنها البيت السالف الذكر : " ألا كل شيء ما خلا الله...... " ففيها كثير من المعاني الاسلامية ، وهاك بعضا منها :

ألا يسألان المرء ماذا يحاول ∴ أنحب فيقضى أم ضلال وباطل

.... ∴ ....

اذا المرء أسرى ليلة ظن أنه ∴ قضى عملا والمرء ما عاش عامل

أرى الناس مايدرون قدر أمورهم ∴ بلى : كل ذي لب الى الله واصل

ألا كل شيء ماخلا الله باطل ∴ وكل نعيم لا محالة زائـــل

وكل أناس سوف تدخل بينهم ∴ دويهية تصفر منها الأنامل

وكل امرىء يوما سيعلم سعيه ∴ اذا كشفت عند الاله المحاصل (١)

---

(١) الديوان ص ٢٧ ، طبعة ليدن ، بعناية هوبر وتقديم كارل بروكلمان .

وقد وردت في ديوانه الأبيات التالية :

حمدت الله والله الحميد ∴ ولله المؤثــــل والمديد

فان الله نافلة تقـــــاه ∴ ولا يقتالها الا ســـــعيد

ويروى (ولا يأثالها الا سعيد) " دار صادر بيروت " .

ومعنى هذه الأبيات أن ماننتفاخر به من محامد ومكارم ليس شيئا بالنسبة الى مايملكه الله تعالى ، وأن الله يهب التقى لمن يشاء ، ولا يستطيع أن يحــوز هذه التقوى الا سعيد ، وهي معان كلها اسلامية مما يدل على أنه قالهـــا في ظل الاسلام ، ولننظر في هذه القصيدة التي يستطيع الملاحظ أن يجـــد أثر القرآن الكريم الواضح فيها ، وكذلك الآيات القرآنية التي ضمن معناهـــا في هذا الشعر :

لله نافلة الأجل الأفضـــل ∴ وله العلا وأثيث كل مؤثـــل

لا يستطيع الناس محو كتابه ∴ أنى وليس قضاؤه بمبـــدل

سوى فأغلق دون غرة عرشه ∴ سبعا طباقا فوق فرع المنقل

والأرض تحتهم مهادا راسيا ∴ ثبتت خوالقها بصم جندل

الماء والنيران من آياتـــه ∴ فيهن موعظة لمن لم يجهل

بل كل سعيه باطل الا التقوى ∴ فاذا انقضى شيء كأن لم يفعل

لو كان شيء خالدا لتواءلت ∴ عصماء مؤلفة ضواحي مأسل (١)

---

(١) الديـــــوان ص ٣٢

وقد أورد الراغب الأصفهاني في محاضراته الأبيات التالية منسوبة
الى لبيد بن ربيعة :

فواعجبا كيف يعصى الاله ∴ أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية ∴ تدل على أنه الواحد

ولله في كل تحريكة ∴ وتسكينة أبدا شاهد

وفي هذا يستطيع المرء أن يتلو لكل بيت منها آيات من الذكر الحكيم
تدل على أن الشاعر تلاها وتمعن معناها ثم نظم شعرا فيها *

هذا .. وقد ذكر الطوسي أن لبيدا قال حين ارتحلت بنو جعفر
ونزلت بلاد بني الحارث بن كعب ، ولعل هذه الأبيات تصور أساه على
فراق بني جعفر الجزيرة حين خرجوا في الفتوحات الاسلامية :

انما يحفظ التقى الأبرار ∴ والى الله يستقر القرار

والى الله ترجعون وعند ∴ الله ورد الأمور والاصدار

وكل شيء أحصى كتابا وعلما ∴ ولديه تجلت الأسرار

واضح جدا أن هذه الأبيات حافلة بالمعاني الاسلامية ... الخ .

ولننظر في هذا الأبيات التي قالها لبيد يذكر أعمامه وقومه بني جعفر
ابن كلاب ويأسو لفقدهم ، فيقول :

أصبحت أمشي بعد سلمى بن مالك ∴ وبعد أبي قيس وعروة كالأجب

وبعد أبي عمرو وذوي الفضل عامر ∴ وبعد المرجي عروة الخير للكرب

وبعد طفيل ذي الفعال تعلقت ∴ به ذات ظفر لا تورع باللجب

وأبو قيس هو : عامر بن الطفيل ، ومعنى ذلك أن هذه القصيدة قيلت بعد موت عامر أى أنها من شعره فى أول اسلامه ، أو قبيل ذلك بزمن يسير جدا .

ومن هذا العرض الوجيز للبيد المسلم ، نستطيع أن نقول : أنه كان يقول الشعر ، وأن ماقيل من هجره الشعر لا يثبت أمام التحقيق والبحث ، هذا ماتوهمه الأولون وسار على دربهم المتأخرون .

ومع ذلك يصح أن نتساءل : لماذا لم يكثر لبيد من شعره الاسلامى ؟ ولماذا لم يمتدح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فى بعض شعره ؟

من الواضح أن شعره فى الاسلام لا يقوم أمام شعره فى الجاهلية ، ذلك الشعر الرصين القوى ، وأن لبيدا قد دهش ببلاغة القرآن الكريم واعجازه ، وانصرف اليه بكل جوارحه واحساسه يحفظه ويكتبه ويتأمله ، وقد انصرف عن الشعر ولم يهجره ، ولم يتخذه حرفة ولا صناعة ، بل أولاه بعض اهتمامه فى أوقات متفاوتة مما بقى من حياته ، فلم يعد لبيد الشاب الطموح الصناع فى شعره ، بعد أن تفتحت نفسه للقرآن الكريم ، ولم يكن كذلك العازف المنصرف عن الشعر كلية ، لذلك كله لم يجود ولم يكثر من هذا الشعر .

ولعله قد رأى فيما رأى أن مكانة الدين ومقام أفضل الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه ، أجلّ وأسمى من أن يتوصل اليهما بالشعر ، بل يسعى اليهما بالزهد والتقى وصدق الايمان ، وهو الذى استعمل شعره فى مدح الناس ، فهل يرتفع شعره حتى يجدر بمدح الرسول صلى الله عليه

وسلم ؟ وخصوصاً أنه قرأ في القرآن الكريم وصف الشعراء الذين يتبعهم الغاوون ، وأنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون ...

لعل في ذلك جوابا على ماتقدم .

الباب الثاني

(((شعر لبيد)))

==== ===

الفصـــــل الأول

=====

مضمــــون الشـــعر عنـــده

((الأفكـــار ـ المعانى ـ الصور والأخيلة))

=== ===

أما معانيه وأخيلته ، فمن الدقة والخصوبة والروعة بمكان كبيـــر ، فهى ذات صلة بالصحراء والأماكن التى ارتادها ، وألوان الحياة التـــى شهدها ، وهى ذات صلة وثيقة بنفسه الصافية الكريمة التى تضفى على شعـره كثيرا من الطيبة والوداعة ، ومن عمره الطويل الذى أكسب شعره الخبـــرة والفلسفة البدوية الساذجة من غير تصنع أو تعقيد ، فخياله ـ كالطبيعـــة البدوية ـ واسع رحب صاف فيه خصب وجمال .

وقارئ شعره يشعر بكثير من الامتاع والتلذذ النفسى على مافـــى شعره من غرابة الجو البدوى التجدى البعيد عن دنيا الحضارة والتمدين .

وسنعرض ذلك من خلال استقرائنا لمعلقته ، فهى المعلقـــة الرابعة بين المعلقات السبع[1] وهى من البحر الكامل ، وتحتوى على ثمانيـــة وثمانين بيتا ، وقيل أنها تسعة وثمانون بيتا ، ولا شك أنها من أحسن شعره وأجوده ، ويمكن أن يطمأن الى أن القصيدة قد وصلت سليمة كاملـــة دون تغيير أو تبديل ولم تمتد لها يد التحريف والتمحل كما مس غيرهـــا

---

(١) شرح المعلقات السبع ص ٩١ الزوزنى .

من المعلقات ، وذلك لأن لبيدا قد شهد عصرا متأخرا في الجاهلية وصدرا متقدما في عهد الدولة الأموية وعاصر حركة جمع الشعر ، ولذلك ظلت قصيدته سليمة مبرأة من النحـــــل والتزوير .

وقد نالت هذه المعلقة اعجاب الناس وشغفهم ، وذلك لما امتازت به من خصائص رفيعة وسمات فريدة ، فقد انفردت بأسلوب رائع رصين ينم عن الفصاحة والبلاغة ، وقد تضمنت كثيرا من معانى الأدب والحكمة ، مما جعل محبي الأدب والحكمة يولعون بحفظها ويجدون فيهـــا ضالتهم ، ومحبي الطرب واللهو وأصحاب الفن والغزل ، وقد وجدوا فيهـــا التشبيهات النادرة والطبيعة الرائعة والانفعالات النفسية لدى الحيــــوان وضروب العز والنبل والكرم ، وجدوا في كل ذلك لذة ومتاعا ، وسنحاول جاهدين عرض المعانى والصور والأخيلة في المعلقة وأفكارها قدر استطاعتنا .

بدأها بذكر الديار المقفرة ووصف الأطلال البالية ، وقد خلت هذه الديار من أهلها ، ومضت عليها سنوات طويلة كاملة ، دون أن يطرقهـــا انسان ويستقر بها مقيم ، وهي معرضة لفصل الرياح وتنتابها الأنــــواء وتصيبها الأمطار الغزيرة مرة والضعيف مرة أخرى ، ويقصف في جوهـــا الرعد وتنجلي عنها الأحداث الجوية ، فيعقبها خصب ونماء ، وتـــدب فيها الحياة ، وتعشوشب الأرض ، وصارت مرتعا للظبي والبقر ، ومأمنـــا للوحوش ، يمارس فيها حياته الخاصة وقد أمنت الناس .

وهنا وقف الشاعر على هذه الديار التي يصبر عنها ، وتبدلـــت

أحوالها وشئونها ، وقفة السائل المتذكر ووقفة الحزين الآسف ، وهو يود لو تخبره بأخبار الذين كانوا فيها ، ولكنه لا يكاد يستغرق في هذا التفكير حتى يرده حزنه الى الروية والرشد ، فينكر على نفسه ذلك ، من سؤال هذه الديار والصخور الصم الخوالد ، التي فقدت كل حركة وكل نشاط فكيف السبيل اليها ... الا تتكلم ؟ وكيف السبيل لها الى أن تجيب ، وذلك في قوله :

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا ... صما خوالد مايبين كلامها

ثم ينتقل الى أطلال الديار وآثار الخيام ، وآثار ماكانت تحتويه الخيام من المتاع والأثاث ، وقد محيت ولم يبق منها الا القليل ، كأنه بقايا نقش قد محاه أو كاد يمحوه طول العهد ، أو كأنه رجع الوشم وقد أخذت الواشمة تعيده وتجدده على اليد ، ولنستمع اليه وهو يردد هذا المعنى :

وجلا السيول عن الطلول كأنها ... زبر تجد متونها أقلامها

أو رجع واشمة أسف نؤورها ... كففا تعرض فوقهن وشامها

ثم يحن الشاعر الى هذه الأرض وتثيره الذكريات الى أهلها القدماء وماكان بينه وبينهم من لذة ولهو ومتاع ولقاء ، وما كان يقاسمهم فيها من ألم ، فأخذ يسأل ويلح بالسؤال ثم يثوب الى رشده ويستيئس من الجواب ويقتنع باجترار الذكريات ، وأخذ يتحدث عن يوم الرحيل ، وعن النساء الحسان اللاتي غادرن هذه الديار

الى أرض مجهولة ، لا يستطيع هو معرفتها والتيقن منها ، فقد تكـــون
عن شماله نحو الحجاز ، وقد تكون عن يمينه نحو اليمن ، وعلى كل فهو عاجز
كل العجز عن الوصول الى هذه الأماكن أو تلك ، واكتفى بالذكـــرى
والاستحضار ، وهو يرى النساء وقد دخلن الهوادج ، كأنهن الظبـــاء
حين يأوين الى الكنس التى يتخذنها من أغصان الشجر ، وقد تحقق مـن
هذه الهوادج ، فيذكر قوائمها وما انتشر عليها من ثياب واستارها الرقيقة ،
ونهضت الابل واتبعها ببصره وهى تنأى عنه رويدا رويدا ، ثم أن صورها
وهى تبتعد عنه وتختفى خلف الأفق ماتزال تتمثل لعينه حتى تتخذ مـن
سراب الصحراء أردية تتوارى خلفها ، ولم يكتف الشاعر بوصف مارأته عينـه
بل أشرك أذنه فيما سمعت ، وهو يصور لنا ماسمعته تصويرا رائعا لا يقـدر
عليه الا الشعراء أمثاله ، فهذه الابل قد نهضت وأخذت تسعى بأحمالها
من خيام ومتاع ، وهى تسعى مضطربة ، وهذه الخيام تصر لهـــذا
السعى والاضطراب ، ومن يعلم لعل فى صرير هذه الخيام احتجـــاجا
واعتراضا لهذا الرحيل المفاجى ؟ ،

والآن وقد ذهب كل ذلك .. وتوالت الأيام دون أن يبلغ أحباءه ،
لأنه لا يعلم وجهتهم ، وأين حطوا رحالهم ؟ فمن الذى يستدعيه الـــى
الاسترسال فى اليأس والاستسلام الى هذا الجزع ؟ وفى الحياة مايشغله
عن هذا اليأس ويصرفه عن هذا الجزع ، وأن صاحبته هذه التى هجرتـــه
وانصرفت عنه وقطعت كل مابينهما من الوسائل والأسباب لخليقة بأن تلقى

صداً بصد ، واعراضاً باعراض ، وهجراناً بهجران ، وقد مضت الابـل بصاحبته الى حيث لايدرى ، ولعل ناقته لاتستطيع ادراكهم ... ولنتـرك العنان للشاعر ليتحدث عن تلك المعانى كما صورها هو :

عريت وكان بها الجميع فأبكروا ∴ منها وغودر نؤيها وثمامهـا

شاقتك ظعن الحى حين تحملوا ∴ فتكنسوا قطناً تصر خيامها

. . . . ∴ . . . .

فصوائق ان أيمنت فمظنـة ∴ منها وحاف القهر أو طلخامها

فاقطع لبانة من تعرض وصله ∴ ولشر واصل خلها صرامهـا

ويروى (ولخير واصل خله)(١)

وكان لناقته قسط كبير من الوصف والتشبيهات ، فهى تختلف عن النوق الأخرى التى لاتعدو أن تكون حيواناً يصفون أعضاءه أو يمدحـون هزاله من كثرة الأسفار ، واحتملت من ذلك غير قليل ، فهى متعبـة مكدودة ، قد براها السفر والسير المتتابع وألح عليها الهزال ولكن ذلـك لم يقعد بها عن السرعة ، فناقته فيها حياة وحركة وقوة ونشاط ، فهو يتبعها ويسايرها ويشبهها بالبقرة الوحشية تارة وبحمار الوحش تارة أخرى ، ويتخذ من كل ذلك وصلة وسبباً لاستحضار الصور الطبيعية المختلفة ، ولا يقتنـع لبيد بوصف ناقته ، وانما يذهب الى ابتداع الأحداث والأقاصيص التى ينفذ منها الى عرض الصور الحية والأحداث الفاجعة للأتـان

---

(١) حديث الأربعاء جـ ١ ص ٣٤ د . طه حسين .

الوحشية ويعرض عن هذا الطريق عواطفه وانفعالاته ، فهدت الأتان الوحشية تنافست فيها الفحول وتزاحمت عليها وكثر فيما بينها العراك والنفار ، ثم استأنست بواحد من تلك الفحول أو قل استأثر ذلك الفحل بها ، واصطفاها لنفسه ، وراوده الشك فيها والغيرة عليها ، ففضل أن ينفرد بها في مكان قصي منعزل ، فهو يدفعها أمامه ويعدو في أثرها ، وهي تسرع وهو يزداد سرعة في طلبها حتى بلغا مكانا مرتفعا فيه نبات وعشب ، فيقيمان فصل الشتاء حتى يقبل الحر ويحتاجا للماء بعد أن ألح عليهما الظمأ ، فيقدمها أمامه لتسعى بين يديه فتحاول أن تفوته وهو يدركها أو يكاد ، فيثيران غبارا وينتشر كأنه ثوب يتجاذبانه ، أو كأنه دخان مشعلة مضطرمة ، ومايزالان في عدوهما حتى يبلغا مكان ماء رائق جميل حوله قصب يتأود ويتمايس مع الهواء فبعضه قائم معتدل والبعض الآخر منكفيء على الماء وكأنه يريد معانقته .

ولا يكتفي صاحبنا بهذه الصورة بتشبيه ناقته بالبقرة الوحشية ، بل أخذ يحلل الأحداث ويفتعل النكبات لهذه البقرة ويسرد الآلام التي تعانيها بأسلوب فاجع مؤثر ، فالبقرة قد فقدت وليدها بعد أن تركته تابعة قطيعها ، فافترسته الذئاب الكواسر ، فعادت تبحث عنه حيرى ، والهة جازعة تروح هنا وهناك ، يتردد بغامها بين كثبان الرمال فلاتجده ، فيمضي النهار ويحط الليل ويسيل المطر ويروي الأرض ، ويزداد المطر كما يزداد الظلام البهيم ، فيشتد بها الخوف ، وتأوي الى جذع شجرة ثبتت

في أصل كثيب بعيدة عن متناول الناس ، والبرق يلمع في ظلام الليل
المخيف ، والبقرة تبدو تحت الضياء لامعة كأنها جمانة البحري سل
نظامها ، وتظل في حيرتها تتردد حول الغدران سبع ليال كاملات ،
ويداخلها اليأس وكأنها تتحسس ضرعها الذي جف فيه اللبن الذي أودعته
الحياة لابنها ، المفزوعة له الجازعة عليه ، وبينما هي كذلك اذ يتلبسها
القدر بصياد لا تعرف مكمنه ولكنها تدرك ادراكا غريزيا أن الخطر يتهددها
فترهف السمع وتتحسس صوت الانسان ، ويستمر في وصف انفعالات البقرة كأنه
يصف انفعالاته هو هذا الوصف الدقيق ، ويستمر في سرد القصة فان
البقرة التي تنجو من نبال الصياد ، تتعقبها كلاب الصيد التي أرسلها
القناص ، فصارت تعدو في أثرها الكلاب وقد أيقنت أن لا نجاة الا بالقتال
واستبسالها فيه ، فتعطف على هذه الكلاب وتكون بينها وبينهن معركة
تسفر عن قتيلين .

كل هذه الصور والأقاصيص التي يقدمها لبيد لكي يقول " ان
حال أولئك مثل حال ناقته التي تمسي تحته " ، والى جانب هذه
الروعة والبداعة الفائقة في عرض الشاعر حالة ناقته واستخدامه شتى الصور
الرائعة والتشبيهات المنتزعة من البيئة العربية واللباقة الفنية في نقل فكره ،
الا أننا نلمح الى جانب ذلك كله الأقصوصة الشعرية الراقية بأحداث
مفجعة مؤلمة ، وقد استوفى الشاعر أركانها وأحداثها ، ولو أن الشاعر
وضع امرأة موضع البقرة فماذا كان ينقصه ؟ لا شيء اطلاقا ، ولعل في

عرفى النحو خير مايرسم هذه الصورة ، قال :

يطلبح أسفار تركن بقيـــة ∴ منها فاحنق صلبها وسنامها

واذا تغالى لحمها وتحسرت ∴ وتقطعت بعد الكلال خدامها

فلها هباب فى الزمام كأنهـا ∴ صهباء خف مع الجنوب جهامها

أو ملمع وسقت لأحقب لاحه ∴ طرد الفحول وضربها وكدامها

يعلو بها حدب الأكام مسحج ∴ قد رابه عصيانها ووحامهـا

بأحزة الثلبوت يربأ فوقهـا ∴ قفر المراقب خوفها وآرامهـا

حتى اذا سلخا جمادى ستة ∴ جزءا فطال صيامه وصيامهـا

رجعا بأمرهما الى ذى مرة ∴ حصد ونجح صريمة أبرامهـا

....

ومضى وقدمها وكانت عادة ∴ منه اذا هى عردت أقدامهـا

....

أفتلك وحشية مسبوعة ∴ خذلت وهادية الصوار قوامها

....

صادفن منها غرة فأصبنهـا ∴ ان المنايا لا تطيش سهامهـا

....

وتضىء فى وجه الظلام منيرة ∴ كجمانة البحرى سل نظامهـا

حتى اذا انحسر الظلام وأسفرت ∴ بكرت تزل عن الثرى ازلامهـا

....

حتى اذا يئس الرماة وأرسلوا ❊ غضفا دواجن قافلا اعصامها

فلحقن واعتكرت لها مدرية ❊ كالسمهرية حدها وتمامها

لتذودهن وأيقنت ان لم تزد ❊ ان قد أحم من الحتوف حمامها

فتقصدت منها كساب فضرجت ❊ بدم وغودر فى المكر سخامها

هذا ... وأريد ألا أمر بهذه الأبيات دون أن أشير الى ما فى البيت الثامن منها من اقدام وتصميم ، فانظر اليه كيف رسم فيه العزيمة المصممة ؟ والمضاء الذى لا احجام ولا تردد فيه ، وكيف استطاع أن يلائم بين هذا المعنى الحازم الشديد وبين هذه الألفاظ الحازمة الشديدة ؟ فقد استعمل كلمة " الفرة " وكلمة " الحصد " ، ثم انظر الى الشطر الثانى منه كيف أرسله مثلا تجرى به الألسنة مهما كرت العصور واختلفت البيئات ، وهو قوله : " ونجح صريمة أبرامها " وهو يريد أن يقول : " ان نجح العزيمة رهين بالتصميم عليها " .

وبعد أن أتم الشاعر تصوير البقرة تصويرا حقق به انفعالاته ورسم جميع أحوالها وتصوير الآثان فى أطوارها المختلفة ، وبرع فى ذلك براعة لا تجارى ، التفت الى راحلته فذكرها ، وذكر مايستعين بها عليه من التنقلات والأسفار :

فبتلك اذ رقص اللوامع بالضحى ❊ واجتاب أردية السراب آكامها

فهو يستقبل الصحراء براحلته ، وقد ارتقت شمس الضحى سلالم السماء وأنارت الكون من أدناه الى أقصاه ، وتحولت الى مرقص للأياحل

الحديث اليها معاتبا مفاخرا ، فاذا هو يندفع في تصوير حياته لها في السلم والحرب ، ففي السلم — فهو لاهٍ — ليله ونهاره ، غاشيا مجالس القوم مترددا على الحانات ، مغالياً في شراء ابنة الكرم ، لا يستفيد ولا ليستكثر من الربح ولكن ليبذر ماكسبه على السائل لنفسه والجائع فيطعمه والمحروم ليعطيه ، وأما في الحرب فهو أسرع قومه وثوبا الى فرسه ، اذا ماتناهى اليهم خبر نذير غارة أو أشفقوا منها ، ولم لا يكون أسرعهم جميعا الى فرسه وقد اتخذ من لجامها وشاحا له ، كأنما ينتظر الفزع في كل لحظة من لحظات النهار ، فهو اذن دائما متأهب مستعد للمفاجآت ، فلا يستطيع العدو أن يأخذه على غرة ... ولم يكد يعلو فرسه حتى اندفع به طليعة لقومه يرقب تحركات العدو ويرصدها فيشرف بفرسه مرقبا عاليا يقيم فيه ماأقام النهار ، وينتظر أن يرى في العدو مايدل على مقدمه لينبيء قومه ، قال :

بل أنت لاتدرين كم من ليلة ∴ طلق لذيذ لهوها وندامها

قد بت سامرها ، وغاية تاجر ∴ وافيت اذ رفعت وعز مدامها

أغلي السباء بكل أدكن عاتق ∴ أو جونة قدحت وفض ختامها

وصبوح صافية وجذب كرينة ∴ بموتر تأتاله ابهامها

باكرت حاجتها الدجاج بسحرة ∴ لأعل منها حين هب نيامها

وغداة ريح قد وزعت وقرة ∴ اذ أصبحت بيد الشمال زمامها

ولقد حميت الحي تحمل شكتي ∴ فرط وشاحي اذ غدوت لجامها

الذى عاوده النشاط وانتشر فى الفضاء الواسع يجوب أركانه وحداناً وزرافات ، ويمضى الضحى ويخلفه انتصاف النهار ، ويمتد السراب ويتكاثف ويغطى الآكام والتلال المثبتة هنا وهناك كأنه رداء تسترت خلفه أو ستار أسدل عليها .

الا أن الشاعر عاد الى ذكر حبيبته ــ النوار ــ تلك التى كان يتعزى عنها فى مطلع القصيدة ، فقال مترنماً بما منحه الله من خصال الكرم والكرامة والعزة والاباء :

أو لم تكن تدرى نوار بأننى ... وصال عهد وحبائل جذامها
تراك أمكنة اذا لم أرضها ... أو يعتلق بعض النفوس حمامها

فالشاعر يصور لنا عزة نفسه واباءه لضيم أحسن تصوير وأروعه ، فهو لا يقيم فى مكان مكرها مرغما ، ويسام فيه الضيم ، أو تهان نفسه فيه ، وان أقام فلابد لبعض النفوس أن تزهق وتشرب المنية ، غير أنه لم يذكر هذه النفوس على وجه التخصيص ، وكل ماهنالك أنه ان أقام فى مكان يستشعر فيه الضيم أو الاهانه فهو لن يرضى بهذا الضيم أو تلك الاهانة ، فاما أن يستشهد و يموت فى سبيل هذا الاباء واما أن يميت .

ثم يدير الشاعر دفة الحديث عن صاحبته ويوجهه اليها بعد أن أطال الحديث عنها وبعد أن أطال الكلام وأجال الفكر وقدح الذهن حتى ارتسمت فى نفسه ارتساما على بعد العهد ونزوح الديار ، واستحضرها بخياله فاذا هى ماثلة أمامه يراها ، ويشعر بوجودها بجانبه ، وأخذ فى

فعلوت مرتقبا على ذي هبوة ∴ حرج الى اعلامهن قتامهـا
حتى اذا ألقت يدا في كافر ∴ وأجن عورات الثغور ظلامهـا

هناك يهبط الى السهل ، فقد خيم الليل وأسدلت ستائره ولم يبق له أرب في ارتقاب العدو من هذا المكان المرتفع ، ولكن تأمل معنى قوله : " حتى اذا ألقت يدا في كافر " ، يريد حتى اذا غربت الشمس ، ألا ترى روعة في التعبير وجمالا في الأسلوب ودقة في التصوير ، يقول :

أسهلت وانتصبت كجذع منيفة ∴ جرداء يحصر دونها جرامها

وبعد أن فرغ الشاعر من ذلك كله أخذ يصف لنا فرسه ومدى تحمله لشدائد الحرب ومعاناته لها ، ومقدار صموده في المعركة ، على الرغم من كل مايعانيه من تعب واجهاد ومشقة ليفر ويكر بصاحبه ، ليتخذ من ذلك معبراً الى وصف موقفه في محافل الخصومة ومقارعة ومخاصمة الأعداء ، قال :

رفعتها طرد النعام وفوقه ∴ حتى اذا سخنت وخف عظامها
قلقت لحالها وأسبل نحرها ∴ وابتل من زبد الحميم حزامها
.... ∴ ....
وكثيرة غرباؤها مجهولة ∴ ترجى نوافلها ويخشى ذامها
غلب تشذر بالذحول كأنها ∴ جن البدي رواسيا أقدامها
أنكرت باطلها وبؤت بحقها ∴ عندي ولم يفخر علي كرامها

فهو يشير في الأبيات الثلاثة الأخيرة الى مهاجاته للربيع بن زياد العبسي

على باب النعمان .

ثم يتحدث الشاعر بعد ذلك عن عادة لازمته في جاهليته واسلامه — عن كرمه وجوده — فقد حدثنا آنفا حين كان يقامر على نحر الابل لا يبتغي بذلك ربحاً وكسبا ، وانما يبتغي اطعام الجائعين والمحتاجين الذين كانوا يأوون اليه ، فيهم الضيف وفيهم الجار وفيهم العاقر لا ولد له وفيهم المطفل قد كثر ولدها وفيهم هذه البائسة وفيهم البائسات يلزمن أطناب الخيمة كأنهن النوق التي تشد الى قبور الموتى لا تبرح حتى تموت عليه ، وكل هؤلاء يرزقون عنده رغدا ، وتقدم لهم الجفان وقد ملئت بالثريد ، وكللت باللحم ، فهم ينعمون كأنهم نزلوا — تبالة — وقد أخصبت وكثر فيها الرزق ، فيقول :

وجزور أيسار دعوت لحتفها ∴ بمغالق متشابهة أجسامها

أدعو بهن لعاقر أو مطفل ∴ بذلت لجيران الجميع لحامها

فالضيف والجار الجنيب كأنما ∴ هبطا تبالة مخصبا أهضامها

تتساوى الى الاطناب كل رزية ∴ مثل البلية قالص أهدامها

أما الجزء الأخير من المعلقة ، فقد خصصه الشاعر لمدح قومه والفخر بهم ، والتغني بأمجادهم ومآثرهم ، وهو في هذا يمثل الرجل العربي المعتز بقومه الذي يرى ان لا عز له الا اذا عز قومه .

فاذا تغنى لبيد بحياته ومكارمه ولهوه واسرافه في معاقرة الخمر وانفاقه فيها ، فرغ عندئذ الى عشيرته ، ففخر بهم ووصفهم بما هم أهل له ، من الكرم والنجدة والبأس وقوة السلطان ، فقال في معلقته مفتخرا

بهم وبعزتهم ومكانتهم الرفيعة ، قال :

ومقسم يعطي العشيرة حقها ∴ ومغذمر لحقوقها هضامها

وقد كان لمعلقة لبيد تأثير كبير في الآخرين ، فيكفي أن تظهر آثارها في قصيدة شاعر أموي مجيد هو غيلان بن عقبة بن مسعود بن نهيس المعروف بذي الرمة ، يقول البهبيتي في تاريخ الأدب العربي :

مابال عينيك منها الدمع ينسكب ∴ كأنه من كلى مفرية سرب

ويروى : مابال عينيك منها الماء .

فكل شيء في قصيدة ذي الرمة صدى لشيء من قصيدة لبيد ، اللهم الا أبياتا قلة يختم بها لبيد قصيدته .

وكذلك فان ذا الرمة لم يفلح في تصوير جو البادية كلبيد ، ويرجع ذلك في رأينا الى اختلاف الحياة والبيئة التي عاشها كل من الشاعرين ، فلبيد لازم الصحراء والبيئة النجدية مما عكس ذلك في شعره ، فهو عندما يصف جو الصحراء فهو يصور بيئته الصحراوية عن مكابدة ومعايشة وملازمة ، أما ذو الرمة فحياته وبيئته تختلف عن لبيد ، فالبيئة عنده يغلب عليها طابع المدينة ، فهو اذن عندما يصف جو الصحراء فليس ذلك عن مكابدة كلبيد ، ومن هنا فان لبيدا قد صور لنا الصحراء تصويرا صادقا ، ونلاحظ أن هنالك فارقا بين القصيدتين ، فلبيد يصف بقرة وحشية افترست السباع وليدها ، في حين أن ذا الرمة لم يعرض للبقرة .

الا اننا لا ننفي أخذ ذي الرمة وتأثره بصور وتعبير لبيد ، وخصوصا

اذا عرفنا أن ذا الرمة كان من عشاق شعر لبيد .

ومن جيد أشعاره في الجاهلية ـ عدا المعلقة ـ قصيدته اللامية ، والتي بلغت مايقارب الستين بيتا ، وهي من البحر الوافر ، وهي مكونة من قسمين رئيسيين :

١)) وصف حيوان الصحراء ، ومعيشته فيها ، وممارسته حياته الطبيعية ، فيعيش في جماعات مؤلفات تلعب بين يديها رئالها وآفالها ، وهاك مطلعها :

ألم تلمم على الدمن الخوالي ⁂ لسلمى بالمذانب فالقفال

كما أنه تعرض لما يفاجيء به الحيوان وهولاء ورئاله بين يديه تتنقل نشيطة وتقفز قفزات اللاهي الذي يريد أن يتمتع بمناظر الطبيعة الخلابة الجذابة ، تفاجئها كلاب الصيد من حيث لا تحتسب ، كلاب مدربة على الصيد والمطاردة والملاحقة ، ويكون هناك عندئذ طراد وعراك يقول :

فباكره مع الاشراق غضف ⁂ ضواريها تخب مع الرجال

فجال ، ولم يجل جبنا ، ولكن ⁂ تعرض ذي الحفيظة للقتال

فغادر ملحما وعدلن عنه ⁂ وقد خضب الفرائص من طحال

هذا ولم يغفل صاحبنا بخبرته ومعرفته لطبائع الحيوان ، من أن يتعرض لما يجري بين الفحول منها والغيرة التي تنهش بعضها من بعض ، فهو ينقل لنا صورة حمار طرد الجحش من مرافقة الاتان ليخلو له الجو ،

فهو لا يطيق محلا آخر معه ، ولا يلام على نفيسه للفحول الأخرى ، ويبين أنه سلط عليها نابه وحافره ملاصقا لها بالضراب ، حتى استبان ايهـا قد حملت وأيها لم تحمل ، وقد أبدع لبيد في هذه الصورة حيث تصور أن الفحول الوحشية تغار على أناثها من بعضها ، وهو بهذا كأنه يصور أحاسيس انسان يغار على امرأة ويريد الاختلاء والانزواء بها عن أعين الآخرين ، ويستأثر بها دون غيره ... الخ .

يقـول :

نفى جحاشها بجماد تـو ∴ حليط مايلام على الزيال

وأمكنها من الصلبين حتى ∴ تبينت المخاض من الحيال .. الخ .

٢)) أما الجزء الأخير فهو يعاتب فيه قومه ، لأنهم أسلموا قيادتهم الى رجل سيء الخليقة خبيث الطوية ، وحادوا عن شيمهم المعهودة ، فيقول معاتبا اياهم :

هم قومي وقد أنكرت منهم ∴ شمائل بدلوها من شمالي

يغار على البري بغير ظلم ∴ ويفضح ذو الأمانة والدلال

وأسرع في الفواحش كل طمل ∴ يجر المخزيات ولا يبالي

أطعتم أمره فتبعتموه ∴ ويأتي الغي منقطع العقال [١]

وكان لموت اربد وقع شديد على لبيد ، فبكى عليه بكاء مرا وحزن عليه

---

(١) الديـوان ص ١٠٩ ــ ١١١ دار صادر بيروت .

حزنا شديداً ورثاه بشعر جيد الديباجة ، صب فيه الشاعر لوعته وأسفه وحزنه ، وفيه حكمة لبيد وفلسفته في الحياة ، تلك الفلسفة المستمدة من بيئته وحياته البدوية البسيطة ، جاء ذكره كله في جزالة لفظ وجمال أسلوب وروعة معنى وبلاغة تصوير ، ومتانة تعبير ، انظر اليه في هذا البيت من قصيدته العينية وهي من البحر الطويل :

وما المرء الا كالشهاب وضوئه ⁂ يحور رمادا اذ هو ساطع

فكل امرىء يخبو بعد توقد ، حين تدركه المنية ، كالنار تكون ساطعة الضوء ثم تصبح رمادا ، ثم نمعن الفكر ونرهف الحس الى تلك الصورة الرائعة التي يصور فيها الشاعر الناس وماهيات أولئك وأنهم يمضون أثر بعضهم جماعات ويلحق بعضهم بعضا وكأن هناك زاجرا يزجرهم وسائقا يسوقهم نحو المحتوم ، يقول :

وما المرء الا مضمرات من التقى ⁂ وما المال الا معمرات ودائع

وما المال والأهلون الا وديعة ⁂ ولابد يوما أن ترد الودائع

ويمضون ارسالا ونخلف بعدهم ⁂ كما ضم أخرى التاليات المشايع

ثم يصور الشيخوخة وفعلها بالرجل الهرم ، من أنه لا يقوى أن يسير على قامتيه ، ولا يستوي على رجليه دون استخدام عصا يتوكأ عليها ، وكأن لبيدا يصور حالته ، وما آل اليه في أخريات أيامه وهو يضرب متوكأ على محجنه يقول :

أليس ورائي ، ان تراخت منيتي ⁂ لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

وما أكثر الصور والكنايات التى حفل بها شعر لبيد ، فبعضها جاء على طريق التمثيل المثل ، يقول فى هجائه للربيع بن زياد العبسى :

وأنت حاس حسوة فذائق

وحاس : شارب ، وهو على المثل أى ستذوق وبال أمرك وتجنى ما ارتكبته يداك وتعاقب بجريرتك .

وبعضها الآخر جاء على طريق الكناية ، يقول :

فى كل يوم هامتى مقزعة

ومقزعة ، متساقط شعرها ، وهذا كناية عن أنه يقاتل كل يوم ويقاتل .

ثم نتفحص مليا هذه الصورة وهو يخاطب عيينة بن حصن الفزارى :

فان كنت قد سوقت معزى حبلقا ∴ أبا مالك ، فانعق اليك بشائكا

والحبلق : الغنم الصغار ، وانعق بشائك : ادع بضأنك ، وهذا على الكناية أى أن كان قومك بهذه الذلة ، كالغنم ، فاجمعهم حولك ، فما يغنون شيئا .

وقد أجاد اجادة تامة فى تشبيه لمعان البرق فى السحب بحبش قائمين بأيديهم الحراب ، يقول :

يضىء ربابه فى المزن حبشا ∴ قياما بالحراب وبالالال

ثم تأمل هذه الصورة التى رسمها للحمار الوحشى وهو يقف على جبل لبنى أسد ، يقول :

يصرف أصلا الأمور تخاله ∴ بأحقاف ساق مطلع الشمس ماثلا

والمعنى : لو أنك رأيت هذا الحمار واقفا عند منعطفات ساق " أو رماله " في آخر الليل (أو عند مطلع الشمس) لحسبته كأنما هو يتفكر في الأمور ويتأمل جوانبها " أو أطرافها " ، فهو قد أضاف صورة حية ناطقة لذلك الحمار الواقف علما بأن وقوفه شيء طبيعي لكن براعة الشاعر وتأمله الدقيق وقوة خياله كل ذلك دفعه ليضفي على هذا المنظر تلك الصورة الحية وكأنه انسان يتأمل في ملكوت الخالق عند بزوغ الشمس أو في جوف الليل .

وينقل لنا صورة أخرى للحمار الوحشي وقت اثارة التزاوج أو وقت منازعة الهم ، يقول :

فهيجها بعد الخلاج فسامحت ❊ وأنشأ جونا كالضبابة جائلا

فالخلاج : التودد والنكاح أو منازعة الهم ، فقد صور الشاعر الغبار الأسود المتطاير من جولان الحمر الوحشية كأنه سحابة .

ثم انظر كيف كنى عن راحة الخيل في قوله :

اذا وضعوا ألبادها عن متونها ❊ وقد نضحت أعطافها والكواهل

فقد كنى بقوله " وضعوا ألبادها " عن أنهم أراحوها بعد التعب .

وقد شبه الجوارى بظباء شقيق (وهو اسم مكان بديار بني سليم) في قوله :

تروح اذا راح الشروب كأنها ❊ ظباء شقيق ليس فيهن عاطل

وقد قدم لنا تشبيها رائعا وصورة جميلة للظلمان (ذكور النعام) في قوله :

ورفاق عصب ظلمانـه ∴ كحزيق الحبشيين الزجـل

فقد شبه الظلمان أى ذكور النعام فى تلك الصحراء بجماعات الأحباش المحتشدين .

والمتفحص لشعر لبيد يجد أن نظراته الحكمية و معانيه وزهيـر ابن أبى سلمى فى هذا المجال كانت قريبة المعانى الاسلامية ، وذلك لأن الفترة التى سبقت عهد الرسالة الاسلامية فترة ارهاص وتهيؤ ، فقد كان هناك احساس بقرب هذا العهد وتبدل فى القيم والمعايير ، ونبذ التوجس والعصبية والجهل وانتشار الحلم والعدل وتهذيب الخلق ، وجمع للشمل وتكتيل للجهود ، وما حلف الفضول الا مثلا لتلك الفترة ، فليس غريبـا اذن أن تظهر معان قريبة من المعانى الاسلامية فى شعر صاحبنا لبيـد وغيره من الشعراء ، وليس غريبا أن يمتدح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بيت لبيد كما أشرنا .

ويظهر فى شعر لبيد كثير من السمو الى ماوراء الطبيعة ، والتأمل والتروى فى آيات الله وهدف الانسان فى الحياة ، ونهايته ومصيره ، بأسلوب فيه قوة وعاطفة شديدة التأثير ، .

يقول البستانى : " ان لبيدا كان يتسامى فى شعره وينفرد بهذه الخاصية عن زهير بن أبى سلمى الذى يلتمس الأمور المادية ، وعن أمية بن أبى الصلت الذى كان يصور ويخبر ، وعن عدى بن زيد الذى اتبع طريق التشاؤم واليأس ، فلبيد يجمع بين هذه الطرائق الثلاث ويسمو بها جميعا الـى مصدر العدل والتعزية .. الى الله .. فيؤمن به ايمانا تاما ويتكل علـى

عنايته اتكالا وثيقا حتى يمكن القول أن لبيدا خالق الشعر الوعظي " (١)

وهناك كثير من الشواهد والأدلة على ذلك يقول :

وما الناس الا كالديار وأهلها ∴ بها يوم حلوها وغدوا بلاقع

ويقـــــول :

وما الناس الا عاملان : فعامل ∴ يتبر ، وآخر رافـــع

فمنهم سعيد آخذ لنصيبــه ∴ ومنهم شقي بالمعيشة قانع (٢)

غير أن البستاني لم يورد لنا أي دليل على قوله ، ومن هنـــا

فاننا نقول ان الحكم بدون دليل كأن لم يكن ، غير أننا نسوق رأى أديب كبير كدليل على ذلك الى جانب الأبيات الشعرية السابقة ٠

ومما يؤيد هذه النظرية قول الخشبي بن عبد السلام حيث يقول : شاعران من فحول الجاهلية لهما بيتان ذهب أحدهما مذهب العدليـــة والآخر ذهب مذهب الجبرية ٠

فالأول — أعشى بكر — حيث يقول :

استأثر الله بالوفاء وبالعد ∴ ل وولى الملامة الرجلا

والذى ذهب مذهب الجبرية لبيد بن ربيعة حيث يقول :

ان تقوى ربنا خير نفل ∴ وباذن الله ريثي وعجل

من هداه سبل الخير اهتدى ∴ ناعم البال ومن شاء أضل

---

(١) تاريخ الأدب العربي ج ٢ ص ١٤٥ كارل بروكلمان

(٢) الديوان : دار صادر بيروت ص ٨٨ — ٨٩

وحكم لبيد كثيرة لا تقتصر على الأبيات التى تجىء عرضا ضمن القصائد الطوال ، وانما هناك قصائد ومقطوعات فى ديوانه خاصة بالوعظ والحكمة ، يصح أن يطلق عليها " فلسفة لبيد البدوية " ، لأن لبيدا بدوى وفلسفته وحكمته مستمدة من جو البادية وأفكارها البسيطة السامية ، وقد تجىء أبيات الحكمة فى شعر لبيد ممزوجة فى رثاء أخيه أربد ، لأن ذكر الموت ينبه الى مصير الانسان وقيمة الحياة والى القدر ونكباته والى الأيام وتقلباتها ، وقد ذكرنا بعض الأبيات فى الصفحات السابقة .

لقد تكلمنا عن المعانى والحكمة التى استمدها الشاعر من بيئته الصحراوية البدوية ، وسنحاول أن نلمس لمسا خفيفا هنا الخطوط الحكمية التى استمدها الشاعر من دينه الاسلامى ، الذى ترك آثارا واضحة فى نفسيته وانعكست آثاره فى شعره ، وقد تعرضنا لذلك آنفا ، وقلنا أنه لابد أن يكون قد اطلع على بعض الآيات بل على الكثير من آيات القرآن الكريم حين نظم بعض أبياته ، مثل :

رأيت التقى والجود خير تجارة ∴ رباحا اذا ما المرء أصبح ثاقلا

ومن هنا يتبين أنه قد استمد الكثير من المعانى والحكم التى وردت فى شعره من بيئتين كان لهما أثر كبير حتى فى حياته وهما :

١ ـ حياته الدينية التى أضافت الى صفاته الايمان والتوحيد ولشوحيم واليوم الآخر .

٢ ـ حياته البدوية التى أضفت على نفسه صفاء وكرما .

هذا الى جانب الخبرة الطويلة والعمر المديد الذى عاشه

الرجل ، فقد اكتسب من ذلك تجارب ومواعظ لاتحصى ومعرفة واسعة .

ولو أننا استعرضنا وصف لبيد لوجدنا فيه كثيرا من الصور الرائعة والعبارات الجميلة ، على أننا نريد أن نلفت النظر الى أن الوصف في الشعر الجاهلي لم يكن مقصودا لذاته ، و لكنه كان يأتي عرضا بشكل تقليدي عند تعرض الشاعر لذكر رحلة أو سفرة قاصدا ممدوحه أو ظاعنا عن دار الأحباء ، وعندما ينفرد بناقته في وسط الصحراء فانه يشتهي الحديث والسلوة ، أو يشعر أنه في أشد الحاجة للهو والطرب فلا يجد غير ناقته أو راحلته الوادعة الأليفة التي تشاركه عناء السفر ، ووحدة الطريق ، ووحشة الليل أو الظهيرة ، وأول مايفكر اذا ما بدأ الحديث أن يوجهه الى الذي يقاسمه العناء والشدة ، الى راحلته ، لأنها ألصق شيء به ، ويشعر بأنها أنيسه الوحيد في تلك القفار الموحشة اذا ماأوغل في جوف الصحراء ، وانها تستأهل منه عنايته واهتمامه فلا أقل من أن يناجيها ، فيتحدث عنها فيصف سيرها وأنفاسها وأعضاءها مشبها ذلك كله بما يجده في الصحراء من هضاب وكثبان وسماء ونجوم وغيوم ، وقد يفجأه وهو في الطريق وحش أو أثان فيأخذ في ملاحقته ومطاردته ويعرض أمره فيصف عدوه وجموحه وعراكه مشبها ذلك بأمور يتحققها أو يتصورها مستعينا في ذلك بالاستعارة والمجاز والتشبيه والقصص البسيط غالبا ، والمركب في الأحايين الأخر .

وقد جاء وصف لبيد دقيقا متينا ، يحيط بكل صور الوصف ، يدقق في هذه الصورة ويتأنق ، ويفصل في بعض الاحايين ، وقد يذهب الى ذكر

الأحاديث وتفصيلها في أماكنها ، ويدل الغرباء أن ها هنا حدث كذا في المكان الفلاني ، وما لبيد بالرجل العابث عندما يذكر الديار أو يصف أماكنها ، فان لها في نفسه ونفس كل بدوي الصورة الحلوة الشجية التي تبعثها الذكريات ذكريات الماضي وأيام الشباب ، ذكريات الأهل والأحبة والأصحاب ، ذكريات الليالي المقمرة والسامرة وما كان يتخللها من حب وغزل بين العشاق ، فهم قضوا زهرة شبابهم يقطفون الورود من فوق الربى الخضر ، ذكريات الأيام والوقائع والمجالس والأسمار ، فكلنا تشده تلك الأيام ، ويطرب للحديث عنها ، بكل ما فيها من أحداث ، ويحب الحديث عنها كلما سنحت له الفرصة

وقد مر معنا وصف لبيد لناقته عند تعرضنا للمعلقة ، ولا أرى داعيا للتكرار ، ومع ذلك فانني أريد أن أعرض بيتا أعجبني ، يقول لبيد :

فمضى وقدمها وكانت عادة ⁂ منه اذا هي عردت أقدامها

ولعل في هذا المعنى معنى الحفاظ على الأنثى ، وخوفا من عنادها وزوغانها ، أخذت المدينة الحديثة هذا التقليد في تقديم المرأة عندما يصحبها زوجها أو صاحبها في خلوة أو طريق •

ومادام الحديث جرنا الى ذكر المرأة والتغزل بها ، فانني أريد أن أعرض لغزل صاحبنا وذكره المرأة ، فهو عندما يتغزل فانه يذكر المرأة — كنوار وأسماء — وكأنها شيء ليس لها كيان ، فغزله ان يصح أن يكون له غزل بارد لا عاطفة فيه •

ومن المعروف أن المحبين عادة وخاصة الشعراء منهم تكون عاطفتهم قوية ملتهبة كأنها لهب مشعلة ، فعاطفة قيس بن الملوح تكاد الجبال تبكي على حظ المجنون العاثر ، وجميل بثينة الذى استبكى الحمام، وغيرهما من الشعراء المحبين .

وقد جاءت عاطفة لبيد على العكس من ذلك ، فتور مشوب بالبرود خالية من لوعة المحبين الذين اكتووا بنار العشق ، وتأججت صدورهم لفراق حبيب ، أو أجبر على الفراق، وسهروا لياليا طويلة مسهدين أرقى ، متألمين لا يغشى النوم أجفانهم ، محرومين من همسة حالمة وضحكة ساحرة .

فمثلا تراه يقول :

فاقطع لبانة من تعرض وصله ∴ ولشر واصل خله صرامها

ذكره حين تعرض لذكر محبوبته " النوار " ، فانه لم يقترن بوصف لاعج الشوق ، ولا تلهف ولا حسرة على فراق الحبيب، ولا تتذوق فيه مرارة الحرمان ، كما اننا لا نحس فيه بسمة الحب العطرة .

فمعناه ، اقطع المزار ممن تعرض وصله بالقطيعة ، فان شر من وصلك من قطعك بلا ذنب، فأين هذا من غزل قيس بن الملوح وعمر بن ربيعة ؟ وأين مكانه من قول جميل بثينة حين يقول :

ومازادنى النأى المفرق بعدكم ∴ سلوا ، ولا طول التلاقى تلاقيا

واذاً نستطيع أن نقول : اما أن صاحبنا لبيد لم يكن صادقا"

في حبه ، واما انه كان رجلا كتوما صابرا حافظا لعواطفه تلك .

ولا أريد أن أترك هذا الفصل ، دون أن أشير الى بعض فرائد من شعره ، فلقد سارت بعض أبيات لبيد بين الناس وتأثروا بها وتحدثوا عنها حديثا مطولا ، معجبين تارة ومقلدين تارة أخرى ، فان في شعره ذخيرة كبيرة من اللغة النجدية التي أصبح شعره شواهد لها في كتب اللغة ، وكان البدو الكلابيون الذين رووا العلماء عنهم اللغة ذوي أثر في تقريب شعره الى الأفهام .

وقد مر بنا حديث السيدة عائشة معجبة ومترحمة حول قوله :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ∴ وبقيت في خلف كجلد الأجرب

كذلك خبر عبد الملك حين حضرته المنية وهو يردد أبيات لبيد ورواية المعتصم لشعره ، هذا الشعر الذي ذكره بأخيه المأمون فأبكاه وأشجاه ، وقد تحدث الرواة أن الفرزدق مر يوما بمسجد بني أقيصر وعليه رجل ينشد قول لبيد :

وجلا السيول عن الطلول كأنها ∴ زبر تجد متونها أقلامها

فسجد الفرزدق ، فقيل له ماهذا ياأبا فراس ؟ فقال : أنتم تعرفون سجدة القرآن وأنا أعرف سجدة الشعر .(١)

ومن الواضح أن الفرزدق قد أعجب بالصورة الجميلة والتشبيه

---

(١) الأغاني ج ١٥ ص ٢٩٥

الرائع مع العلم بأن تشبيه الأطلال بالخط الدارس ليس شيئا جديدا ولا صورة مبتكرة في الشعر الجاهلي ، فقد ذكر الجرجاني أن ذلك مما يشترك فيه معظم شعراء العرب ، فامرؤ القيس يقول :

لمن طلل أبصرته فشجاني ∴ كخط زبور في عسيب يماني

وحاتم الطائي يقـول :

أتعرف أطلالا ونؤيا مهدما ∴ كخطك في رق كتابا منمنما

والهذلي يقول :

عرفت الديار كرسم الكتاب ∴ يزبره الكاتب الحميـري

وهذا التشبيه مستمد من البيئة الطبيعية التي يشهدها الشاعر من أطـلال دوارس وآثارات باليات .

ومن أبيات لبيد التي تلقفها الشعراء فحوروا فيها أو سرقوا معانيها قوله :

من السبلين الريط لذ كأنما ∴ تشرب ضاحي جلده لون مذهب

أخذه الأخطل فقـال :

لذ تقبله النعيم كأنمـا ∴ مسحت ترائبه بماء مذهب

وقولـه :

وما المال والأهلون الا ودائع ∴ ولا بد يوما أن ترد الودائع

أخذه الأفوه الأودي فقال :

انما نعمة قوم متعـة ∴ وحياة المرء ثوب مستعار

وقولـــــــه :

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا ∴ صما خوالد ما يبين كلامها

أخذه البحتري فقال :

فلم يدر رسم الدار كيف يجيبنا ∴ ولا نحن من فرط البكا كيف نجيب

وقولـــــــه :

كقصر الهاجري اذا ابتناه ∴ بأشباه حذين على مثال

أخذه الطرماح فقال :

خرجا كجدل هاجري لذه ∴ بذوات طبخ أطيمه لا تخمد

قدرت على مثل فهي نوائح ∴ شتى تؤلف بينهن الفرقد (١)

وقوله الذي شغف به النقاد ومؤرخو الأدب :

حتى اذا ألقت يدا في كافر ∴ وأجن عورات الثغور ظلامها

أخذه ثعلبة بن صعير فقال :

فتذاكرا ثقلا رشيدا بعدما ∴ ألقت ذكاء يمينها في كافر (٢)

وقولـــــــه :

وأنا واخوانا لنا قد تتابعوا ∴ كالمقتدى والرائح المتهجر

أخذه أبو نواس فقال :

ســبقونا الى الرحيـــــــل وانا لها الأثــر

---

(١) الشعر والشعراء ص ٩٣

(٢) الوساطـــــة ص ١٥٠ الجرجاني .

وقـــــوله :

لها حجل قد قرعت من رؤوسه ∴ لها فوقه ما تحلب واشل

أخذه النابغة الجعدى فقال :

لها حجل قرع الرؤوس تحلبت ∴ على هامة الصيف حتى تمورا

وقال مشبها الأباريق بالأوز فى هيئتها وهو تشبيه جديد علـــى

الشعر الجاهلى ، يقول ابن قتيبة فى الشعر والشعراء : " انه أول من شبه

ذلك " ، قال :

تضمن بيضا كالأوز ظروفهــــا ∴ اذا أتأقوا أعناقها والحواصلا

أخذه ابن الطثرية فقال :

كأن أباريق اللجين لديهم ∴ أوز بأعلى الصيف عوج المناقر

كما كان كثير من أبياته الشعرية محل استشهاد عند البلاغيـــين

وأهل اللغة ، فقد ذكر القاضى الجرجانى : " وينفرد أحدهم أى الشـعراء

بلفظة تستعذب أو ترتيب يستحسن أو تأكيد يوضح موضعه أو زيادة اهتـــدى

لها دون غيره ، فيريك المشترك المبتذل فى صورة المبتدع " ، ثم يستشـهد

على ذلك بقول لبيد : وجلا السيول على الطلول .... الخ .

أما أصحاب البلاغة والبيان ، فهم مفتونون ببيته القائل :

وغداة ريح قد كشفت وقرة ∴ اذا أصبحت فى يد الشمال زمامها

فهم يعدونه من أحسن الاستعارات .

ويستشهد النحويـــون بقوله :

فان حان يوما أن يموت أبوكما ∴ فلا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر (١)

على أن التنوين قد يحذف من الاسم المنصوب الذى لم يمنع من الصرف .

ولما أنشد المتنبى بيتـــه :

احـــاد فى سداس فى احـــاد ∴ لييلتنا المنوطة بالتنادى

فسئل عن سبب تصغيره (ليلة) ، فقال : " هذا تصغير التعظيم والعـــرب تفعله كثيرا " (٢) واستشهد بقول لبيـــد :

وكل أناس سوف تدخل بينهم ∴ دويهية تصفر منها الأنامل

---

(١) حديث الأربعـــاء ج ١ ص ٤٨ د . طه حسين .

(٢) المتنبى بين ناقديه فى القديم والحديث ص ١٧٨ د . محمد عبد الرحمن شعيب .

الفصل الثانى

== ==

أسلوب الشعر

((الألفاظ – العبارات – الأوزان))

==== ====

غلبت على لبيد الرواية القائلة بأنه هجر الشعر فى الاسلام ، وأهمل الاسلام شعره ، لذا لم يكن من الشعراء الذين قامت عليهم الدراسة وتناولت شعرهم العناية ، مما دفع معظم العلماء والمؤرخين بالنكوص عن محاولة دراسته ومتابعة انتاجه وفهمه والوقوف على اسلوبه الشعرى ، ولقد كان للزمن الطويل أثر كبير فى تغطية شعر لبيد بستار كثيف من الاهمال والنسيان ، اللهم الا قلة قليلة من بين الأدباء والمؤرخين ، عرفوا شعر الرجل وخصائصه ووقفوا على مكانته الأدبية ، ومع هذا لم يعطوه حقه من الدرس والعناية ، والمكانة اللائقة به بين أمثاله من الشعراء المجيدين ٠

وان الدارس لشعره يقف معجبا أمام شاعرية فذة وأسلوب رائع جميل يترك أثرا ووقعا فى النفس ٠٠ فهو شاعر مجيد بلغ حدا كبيرا من الاجادة والاتقان والابداع ٠

فهو من حيث اللفظ ، لم يجد أى ناقد من النقاد القدامى ولا المتأخرين السقط ولا السفساف الذى انحدر اليه كثير من فحول الشعراء سواء كان ذلك فى اللفظ أو الأسلوب أو الخيال ٠

فلفظه سليم لا ركاكة ولا سقم فيه ولا غبار عليه ، وعلى الرغم من جاهليتها وبداوتها وخشونتها فان لها وقعا موسيقيا خاصا وعذوبة شعرية ساحرة ، هذا الى جانب تناسب وجزالة ورصانة تستسيغها الأذواق وتطرب لها النفوس، وهو على رأس الشعراء الذين أخذت اللغة عنهم ، فألفاظه عربية نجدية قحة ، فشعره ثروة لغوية يجب العناية والدرس لها .

هذا ولحسن أسلوبه ورونقه كان ولا يزال محل اعجاب وتقدير من كافة الأدباء والدارسين ، فهو لا يزال متداولا على ألسنة وأفواه الرواة والأدباء والعلماء والأمراء والوزراء ، وقد تدمه بعض النقاد القدامى على شعراء الجاهلية والاسلام ، فقال عنه : " انه أفضلهم فى الجاهلية والاسلام وأقلهم لغوا فى شعره " (١)

كما جعله هذا الناقد فى المرتبة الخامسة من فحول الشعراء بعد امرىء القيس وزهير بن أبى سلمى والنابغة الذبيانى والأعشى ، وذكر ابن رشيق أن الشاعر ذا الرمة كان يفضل لبيدا على امرىء القيس والأعشى وزهير والنابغة . (٢)

غير أن الأصمعى لم يكن معجبا بشعره فوصفه بأنه " طيلسان طبرى " ، أى جيد الصنعة وليست فيه حلاوة ، ولم يعده من الفحول ، ووصفه بالصلاح تهربا من أن يحكم على شعره الدينى ، لأن الأصمعى كان

---

(١) جمهرة أشعار العرب جـ٣ ص ٦٤ ، أبو زيد القرشى ط ، مصر ١٩٢٦م

(٢) العمدة ص ٦٢ ابن رشيق .

يرى أن الشعر اذا دخل في باب الخير لان أي أصابه ضعف على حد زعمه .

وكان الناس معجبون بشعره ويتناقلون أخباره وأقواله معجبين برصانة نظامه ومتانة أسلوبه وروعة معانيه وعمق تشبيهاته ، وقد كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تعجب بشعره ، وتحفظ الكثير منه ، ويروى أنها قالت : " اني لأروى عشرة آلاف بيت له " (١) .

وقد نقلوا أنها كانت تعجب بشاعريته وأسلوبه ، وانها كانت تقول : " رحم الله لبيدا ، ما أشعره في قوله :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ∴ وبقيت في خلف كجلد الأجرب

لا ينفعون ولا يرجى خيرهم ∴ ويعاب قائلهم وان لم يشغب

ثم قالت : كيف لو رأى لبيد خلفنا هذا " ، وقال الشعبي : " وكيف لو رأت أم المؤمنين خلفنا هذا " ؟ " (٢)

ويروى أن عبد الملك بن مروان كان ينشد شعر لبيد وهو على فراش الموت ، ليبعث فيه القوة والصبر والأمل حين يقول :

غلب الرجال وكان غير مغلب ∴ دهر جديد دائم ممدود

يوم أرى يأتي على وليلة ∴ وكلاهما بعد المضاء يعود

وأراه يأتي مثل يوم لقيته ∴ لم ينصرم وضعفت وهو شديد

---

(١) العقد الفريد ج ٥ ص ٢٧٥ ابن عبد ربه .

(٢) جمهرة أشعار العرب ج ٢ ص ٦٦ ط . بولاق .
(٣) الأغاني ج ٥ ص ٢٠٥

ويروى : غلب العزاء .. ودهر طويل .. ثم يموت بعدها .(١)

ويروى عن المعتصم أنه كان شديد الاعجاب بأسلوب لبيد ، وأنه كان يحفظ الكثير من شعره ، فسأل ذات يوم بعض جلسائه : من منكم يروى قول لبيد : " بلينا وما تبلى النجوم الطوالع " ، فأنشده بعض الجلساء :

بلينا وماتبلى النجوم الطوالع .. وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

وقد كنت فى أكناف جار مضنة .. ففارقنى جار بأربد نافع

ويروى : " دار مضنة " ، دار بيروت صادر ، فبكى المعتصم حتى جرت دموعه وترحم على المأمون ، هكذا كان رحمة الله عليه ، ثم انطلق ينشد باقيها ، قالوا : فعجبنا والله من حسن ألفاظه وصحة انشاده وجودة اختياره " (٢)

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ٢٠٥

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٦

العبـــــارات والأوزان :

القصيدة عند لبيد وحدة متكاملة ، يتمم بعضها بعضا ، ويمهد كل بيت لأخيه دون انقطاع أو اقحام ، فاذا رجعنا الى معظم قصائده وجدنا أنه كان يحسن الاختيار والانتقال من موضوع لآخر ويمهد له ، ففي قصائده الطويلة كان يسلك مسلك الجاهليين من حيث تقسيم القصيدة الى موضوعات تقليدية ، كما هو واضح في المعلقة وقصيدته اللامية وفي مطولته التي قالها في الاسلام ، على الأرجح يسلك نفس المسلك تقريبا ، وهاك مطلع تلك القصيدة :

ان تقوى ربنا خير نفل ⁂ وباذن الله ريثي وعجل

يبدأ بالتقوى والوعظ والحكمة ، ثم ينتقل الى وصف ناقته ، ثم الى صاحبته تيشبب بها ، ثم عرج الى الفخر بنفسه ويعود الى الحكمة ويذكر أهله وعشيرته المقربين ، ثم ينهي قصيدته هذه بذكر أخيه أربد .

كذلك سلك نفس المسلك أو مايقارب منه في مطولته التي يبدأها بقوله :

كبيشة حلت بعد عهدك عاقلا ⁂ وكانت له خبلا على النأي خابلا

هذا فيما يختص بالمطولات ، ومنهجه فيها منهج الشعر الجاهلي الذي وصل الينا في صورة المعلقات ، أما القصائد الأخرى فتتوفر فيها الوحدة الموضوعية ، من فخر ورثاء وحكمة ، ولا يكاد يخرج عن الموضوع الواحد التام ، ويبدأ لبيد موضوعه مباشرة دون أن يتلهى ، ويستهل ذلك بالوقوف

على طلل أو مغازلة امرأة أو يمهد لغرضه بموضوع آخر .

كل ذلك في أسلوب قوي العبارة رصين التراكيب ، متين البناء ،

لا التواء فيها ولا تعقيد ، مركزة تؤدي المعنى من أقرب طريق ، كما أن

عباراته وتراكيبه بعيدة عن الزخرف اللفظي الفضفاض الذي يبهر السامع

والقارئ بشكله دون محتواه .

ومع هذا الشعر الجيد ، والأسلوب المتين والعبارات القوية الرصينة ،

ومع هذه الخبرة الطويلة للحياة والممارسة الشعرية مع رحلة عمر مديد سأمه

لبيد وشكا منه ، وقع صاحبنا في بعض الأخطاء وزلت قدمه في العبارات ، فقلما

سلم شاعر جاهلي أو متأخر من نقد النقاد ، ووجود السقط واللغو والتلفيق

في شعره ، وقد جاء في شعر صاحبنا لبيد بعض العيوب وسقط الكلام ، إلا أن

عيوب شعره وسقطات عباراته قليلة أو ليست بالنسبة لغيره من الشعراء

المجودين ، قال :

ومجود من صبابات الكرى ... عاطف النمرق صدق المبتذل

ومجود (ورب مجود) أي جاده النعاس وألح عليه ، وصبابات الكرى بقية

النوم ، ومعنا لا يلائم قوله (ومجود) فالعبارة هنا ركيكة ضعيفة .

ومثل قوله :

أغلي السباء بكل أدكن عاتق ... أو جونة قدحت وفض ختامها

والترتيب الطبيعي أن يقول : فض ختامها وقدحت ، لأن القدح مرحلة تالية

لفض الخاتمة ، ولو أنه قال : وقدحت بعد أن فض ختامها ، لجاز ذلك .

ولكن ذلك لا يقدح في شعره ، ولا يهون من قيمته ، لأن مثل هذه الأخطاء قليلة لو قيست الى غيره من الشعراء أولا ثم الى ضخامة انتاجه ثانيا والى الفائدة اللغوية الضخمة في شعره ثالثا .

أما من حيث الأوزان يعتبر لبيد من شعراء العربية الكبار الذي صاروا على نهج العمود الشعرى الأصيل ، فكان يحافظ على وزنه في كافة قصائده سواء تلك التي قالها في الجاهلية أو تلك التي قرضها في الاسلام ، وزن وقافية موحدة وأوزان سليمة خالية من العيوب والخلل .

ويتمثل ذلك في معلقته التي تبلغ ثمانية وثمانين بيتا ، وقيل أنها تسعة وثمانون بيتا فهى من البحر الكامل ، وقافية متحدة وهاك مطلعها :

عفت الديار محلها فمقامها بمنى ... تأبد غولها فرجامها

ومن أشعاره الجيدة قصيدته اللامية ، والتي بلغت مايقارب الستين بيتا ، والتي صار فيها على منهج العربية السليم من الوزن والقافية والعروض ، فهى من البحر الوافر ، وهكذا كان لبيد في كل قصائده الشعرية يحافظ كل المحافظة على عمود الشعر العربي .

غير أنه قد أخذت عليه بعض المآخذ ، ولكن معظم هذه المآخذ ضرورة شعرية وذلك كقوله :

تمنى ابنتاى أن يعيش أبوهما ... فلا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر

فنزل عند الضرورة الشعرية فسكن منصوبا " شعر" وحقها النصب " شعرا "

وان الضرورة الشعرية لا تجبر شاعرا فحلا كلبيـــد .

وقال :

متى تعد أمرا سى وراء وسيقتى ∴ يصر معقل الحق الذى هو صائر

تجمعتها بعد الشتات فأصبحت ∴ لدى ابن أسيد مؤنقات الخناجر

فقد جاءت كلمة (الخناجر) مخفوضة ، بينما حركة روى القصيدة — الرفع — وهو ما يطلق عليه " الإقواء " ، ولو أن البيت قرئ " مؤنقات خناجـــــر " لجاز ذلك عروضيـــا .

كما أخذ عليه عيب عروضى آخر فى قوله :

درس المنا بمتالع فابان ∴ وتقادمت بالحبس فالسوبان (١)

فان كان يريد " بالمنا " — المنازل — أى بحذف جزء من الكلمة ، عـــد ذلك عيبا عروضيا ، وهو مايطلق عليه النقاد — بالتثليم — ، وأما اذا كـان المقصود " بالمنا " — المنى — بمعنى الحذاء ، يقال داري بمنى دار فلان ، فكأنه قال درس المحاذى المتالع ، فان ذلك لا يعتبر عيبـــا ، لأن الكلمة والحالة هذه سليمة لا حذف فيها .

---

(١) الموشـــح ص ٢٣٤

البـــــاب الثـــــالث

== ==

(((شـــــاعرية لبيـــــــــد)))

يتمتع لبيد بمكانة أدبيـة لابأس بها ومنزلة محترمة بين شعراء عصره ، وفي نفوس الأدباء والمؤرخين ، فقد عده أبو عبيدة معمر بن المثنى في الطبقـة الثانية مع الأعشى وطرفة ، ووضعه ابن سلام في الطبقة الثالثة مع نابغة بنـي جعدة وأبو ذؤيب الهذلي والشماخ بن ضرار .

فشعره كان ولا يزال متداولا على أفواه وألسنة الرواة والأدباء والعلماء والأمراء والوزراء ، وقد قدمه بعض النقاد القدامى على شعراء الجاهلية والاسلام ، فقال عنه : " انه أفضلهم في الجاهلية والاسلام وأقلهم لغوا في شعره "(١)

كما جعله هذا الناقد في المرتبة الخامسة من فحول الشعراء ، بعد امرئ القيس وزهير بن أبي سلمى والنابغة الذبياني والأعشى ، وذكر ابن رشيق أن الشاعر ذا الرمة كان يفضل لبيدا على امرئ القيس والأعشى وزهير والنابغة .(٢)

وقد سبقت الاشارة الى رأي الأصمعي في شعر لبيد ، كما أشرنا الـى مقابلة لبيد مع النابغة الذبياني عند باب النعمان عندما استنشده وكيف أنـه قال له : " اذهب فأنت أشعر العرب ، وهناك قول للبيد نفسه يعين مكانته بين الشعراء ، ولا يخلو ذكره من طرافة وفائدة ، قيل : مر لبيد بالكوفة علـى مجلس بني نهد وهو يتوكأ على محجن له ، فبعثوا اليه رسولا يسأله عن أشـعر العرب فسأله فقال : الملك الضليل ذو القروح ، فرجع فأخبرهم ، فقالـوا : هذا امرؤ القيس ، ثم رجع اليه فسأله : ثم من ..؟ فقال له : الغلام المقتول من بني بكر ، فرجع فأخبرهم ، فقالوا : هذا طرفة ، ارجع فاسأله ثم من ..؟

---

(١) جمهرة أشعار العرب ج ٣ ص ٦٤ ، أبو زيد القرشي ط ٠ مصر ١٩٢٦

(٢) العمدة ص ٦٢ ابن رشيق .

فسأله فقال : ثم صاحب المحجن ، يعني نفسه .(١)

وفي رواية أخرى أنه ميز نفسه بقوله :

ان تقوى ربنا خير نفل ... وباذن الله ريثي وعجل

أحمد الله فلا ند له ... بيديه الخير ما شاء فعل

من هداه سبل الخير اهتدى ... ناعم البال ومن شاء أضل(٢)

ومع ذلك فقد اختلف النقاد في تقدير شعره فمنهم من رآه سهل المنطق رقيق الحواشي ومنهم من عده مثالا لخشونة الكلام وصعوبة الكلام ، وكل من هذين الفريقين ينظر الى شعره من زاوية معينة ، فأما الذين وصفوه بالرقة والسهولة فقد نظروا الى أشعاره ذات السمات الدينية كما نعتقد ، لأنه شعر لين سهل يفوح منه ايمان الشاعر وتقواه وقوة ايمانه بالخالق وأما الذين وصفوه بالخشونة فنظروا الى شعره الذي يصور فيه مناظر الصحراء ويفتخر بأمجاده وأيام قبيلته وذلك لأن شعره هذا شعر نجدي غني بالثروة اللغوية الحية ، وتمتاز بالفصاحة والبيان ، وضخامة الألفاظ وقوة التراكيب فهو غريب بالنسبة لهم ولأنه شيء طبيعي ومتأصل في الشاعر فهو حينذاك يعبر عن بيئته الصحراوية التي عايشها ، فهو اذن لم يخرج عن مألوف الحياة العربية الجاهلية فقد جسدها أجمل تجسيد وعبر عنها أجمل تعبير وكان يجب على هؤلاء أن يتأكدوا من أن هل استطاع الشاعر أن يترجم بيئته تلك ترجمة صادقة .. ؟ وهل كان خارجاً عن المألوف لدى الاعراب .. ؟ واننا نرى أنه كان متمشيا مع حياته البدوية البسيطة وأنه أحسن التعبير والترجمة لها ، وأنه في مجموعة أشعاره قد أخذ العلماء منها ألفاظا عربية محضة ، بل انها حفظت لنا ثروة لغوية ازدانت بها لغة الضاد .. الخ .

---

(١) الأغاني جـ ١٥ ص ٢٩٣ ـ ٢٩٥

(٢) الديـوان ص ١٢ ـ ١٣

الفصـــــل الأول

خصائص شعره فـي كل من الجاهلية والاسلام

أولا : خصائص شعره في الجاهليـة :

ذكرنا سابقا أنه غلبت على لبيد الرواية القائلة بأنه هجر الشعر وأهمل الاسلام شعره ، ولذا لم يكن من الشعراء الذين قامت عليهم الدراسة وتناولت شعرهم العناية ، مما دفع بمعظم العلماء والمؤرخين بالنكوص عن محاولة دراسة انتاجه وفهمه والوقوف على خصائص شعره واستخراج درره ، ولقد كان للزمن الطويل أثره الكبير في تغطية شعر لبيد بستار كثيف من الاهمال والنسيان ، اللهم الا قلة قليلة من بين الأدباء والمؤرخين ، عرفوا مكانة الرجل ووقفوا على خصائص وميزات شعره ، ومع هذا لم يعطوه حقه من الدرس والمكانة اللائقة به بين أمثاله من الشعراء المجيدين .

ولقد جاء ذكر ديوانه في الفهرست ، وقام بشرحه كثير من علماء اللغة أمثال : الأصمعي وابن السكيت وعلى بن عبدالله الطوسي تلميذ الاعرابي ، وقام يوسف ضياء الدين الخالدي بطبع شرح الطوسي في فيينا عام ١٨٨ ثم جمع (انطون هوبر) بعض قصائد لبيد في ديوان مع مقدمة في حياة لبيد باللغة الألمانية .

وان الدارس المتفحص لشعره ليقف معجبا أمام شاعرية فذة وشعر جميل يترك أثرا هادئا ووقعا في النفس المحببة .. فهو شاعر مجيد بلغ حدا كبيرا من الاجادة والاتقان والابداع .

ولم يجد القدماء والمتأخرون الغلط ولا السفساف الذي هوى فيه

كثير من فحول الشعراء ، فمن حيث اللفظ أو الأسلوب أو الخيال سليم لا ركاكة فيه ولا سقم ولا غبار عليه ، وخياله خصب جيد وألفاظه على جاهليتها وبداوتها وغرابة بعضها لها وقع موسيقى خاص وعذوبة شاعرية ساحرة ، هذا الى جانب تناسب وجزالة ورصانة تستسيغها الأذواق وتطرب لها النفوس .

ومن حيث معانيه وأخيلته فمن الدقة والخصوبة والسروعة بمكان كبير ، فهى ذات صلة بالصحراء والأماكن التى ارتادها ، وألوان الحياة التى شهدها ، وذات صلة وثيقة بنفسه الصافية الكريمة التى تضفى على شعره كثيرا من الطيبة والوداعة ، ومن عمره الطويل الذى أكسب شعره الخبرة والفلسفة البدوية الساذجة من غير تصنع أو تعقيد ...

وقارئ شعره - يشعر بكثير من الامتاع والتلذذ النفسى على ما فى شعره من غرابة الجو البدوى النجدى البعيد عن دنيا الحضارة والتمدين .

ولعلنا نستطيع بالعرض السريع للفنون والموضوعات التى تناولها لبيد أن نعطى الصورة القريبة الواضحة لخصائص شعره الجاهلى .

١ .. الفخـــــــر :

يكاد يكون صناعة لبيد طوال حياته الجاهلية ، فاننا لا نجد قصيدة مطولة من قصائده الا وللفخر حظ وافر منها ، فهو يفخر بنفسه بأنه كريم جواد وانه متلاف لماله نحار لابله ، ولبيد فى كل ذلك صادق ، فقد كان نذر فى الجاهلية ألا تهب الصبا الا أطعم الناس وقرى الأضياف ، وقد داوم على ذلك كله فى الاسلام أيضا .

واذا كان فخر الشعراء فى الشجاعة والجرأة والاقدام والبطش بالأعداء

فان لبيدا قد افتخر بالجود والفروسية معا ، وهاتان خلتان محبوبتان عند العرب .

وقد روى الرواة "بأنه رجل كريم وفارس مقدام" (١) ، فهو عندما يفتخر بنفسه فانما يفخر عن صدق ، وتحقيق الواقع مشهود لقومه وأهله وعشيرته ، فقد اتفق الرواة على أنه كان شاعر قومه ، يدافع عنهم ، ويمتدح فعالهم ، ويروى أمجادهم ومآثرهم ، وهو فى هذا يمثل الرجل العربى المعتز بقومه ، فاذا تغنى بحياته ومكارمه ولهوه واسرافه فى معاقرة الخمر وانفاقه فيها ، فرغ عندئذ الى عشيرته ففخر بهم ووصفهم بما هم أهل له ، من الكرم والجود والنجدة والبأس وقوة السلطان ، فقال فى معلقته مفتخرا بهم وبعزتهم ومكانتهم الرفيعة ، قال :

ومقسم يعطى العشيرة حقها ∴ ومغذمر لحقوقها هضامها

....

من معشر سنت لهم آباؤهم ∴ ولكل قوم سنة وامامها .. الخ .

وقد قال لبيد كثيرا من الشعر فى الفخر ، بل له قصائد كاملة كلها فى الفخر لاينتقل الى غيره ، ونذكر هنا بعضا من فخره ليفى بالحاجة ، قال يذكر كرمه ونحره الجذور :

وجزور أيسار دعوت لحتفها ∴ بمغالق متشابه أجسامها

أدعو بهن لعاقر أو مطفل ∴ بذلت لجيران الجميع لحامها

---

(١) الأغانى ج ١٥ ص ٢٩٠

وقال يفتخر بمقاماته بين يدي الملوك وما له من يد سابقة على آل عامر:

وحميت قومي اذ دعتني عامر ∴ وتقدمت يوم الغبيط وفود

وتداكأت أركان كل قبيلة ∴ وفوارس الملك الهمام تذود

ويوم الغبيط : هو يوم الأقاقـــة .

هذا .. وقد افتخر الشاعر بالمناظرة التي جرت أمام النعمـــان

قال :

ولدى النعمان مني موطن ∴ بين فاثور أفاق فالدحل

اذ دعتني عامر لأنصرها ∴ فالتقى الألسن كالنبل الدول

فرميت القوم رشقا صائبا ∴ ليس بالعصل ولا بالمقتعل (١)

وبلغ به الكرم أنه يعطيه من لا يوده ، فيقول :

واني لأعطي المال من لا أوده ∴ وألبس أقواما على الشنآن

وقال معتزا بجلدته وأبناء عشيرته :

فلا تبغيني ان أخذت وسيقة ∴ من الأرض الا حيث تبغي الجعافر

أولئك أدنى لي ولاء ونصرهم ∴ قريب اذا ما صدعني المعاشر (٢)

يقول : لن تجدني الا واحدا من قومي بني جعفر لا أشذ عنهم ، وسأكون

منحازا لهم بعد أن كان انحيازي اليك قد جعلهم يخامرون الظن بأني ابتعدت

بمشاعري عنهم ، وأولئك أقرب الي ونصرتهم واجبة لي اذا ما ابتعد عنـــــي

---

(١) الديوان ص ١٤٧ دار صادر بيروت .

(٢) المرجع السابق ص ٦٦

الآخـــرون :

ولا أريد أن استطرد القول وأطول فيه ، ولكننا أردنا اثبات أن لبيدا كان كثير الفخر بنفسه وبقومه لدرجة الافراط في بعض الأحيان ، وذلك مثل قوله :

وان سألوا عنا لدى كل غارة ⁂ فقد ينبي الأخبار من كان سائلا

ولكي نثبت له هذه الخاصية في العصر الجاهلي والتي عكف عنها بعد اسلامه .

٢ ـ الرثـــــاء :

ان معظم رثاء لبيد منصب على أخيه أربد بن قيس الذى قتل في حادثة أثر سقوط صاعقة عليه ، أثر دعاء الرسول الكريم عليه وعلى عامر بن الطفيل ، وقد أثبتنا آنفا أن بكاءه وحزنه على أخيه كان في بداية اسلامه ، أي أن رثاءه لأخيه كان ولبيد مسلما ، لذا فاننا نؤجل ذلك الى حين آخر ، ونتنـــاول رثاءه في الآخرين قبل اسلامه وقبل أن يدخل الايمان قلبه .

قال في عمه أبي براء مالك بن عامر ـ ملاعب الأسنة ـ وهي من أراجيز النواح ، وكان عمه قد شاخ وخالفت بنو عامر أوامره واتهمته بعزوب العقل ، فشرب الخمر ثم اتكأ على سيفه وقتل نفسه :

قـــوما تجوبـــان مع الأنــــواح
في مأتـــم مهجـــر الـــرواح
يخمشن حـــر أوجـــه صحـــاح
في السلب السود وفـــى الأمســـاح

وأبنـــا ملاعب الرمـــاح (١)

نراه يأمرهما بقد القميص وأن تبكيا واقفتين لأن نوائح العرب في الأكثر يكن قياما ، في مأتم موصول هجيره برواحه أى متواصل ، في ثياب سود وأخرى من الشعر ، تبكيان على ملاعب الأسنة ، وقد سماه الشاعر ملاعب الرماح وانما المشهود من لقبه " ملاعب الأسنة " ، ويبدو أن قافية الرجز ألزمته ذلك .

وقال يرثى الطفيل ، ولعل المرثى هنا هو عمه الطفيل بن مالك :

لما أتاني عن ابن طفيل ورهطه .. ردوءا فباتت غلة في الحيازم

اى لما بلغني ذلك عن طفيل ورهطه باتت حرارة الحزن تتقد في صدرى (٢)

فهو عندما يرثى يصب حزنه صبا ، رثاء ملىء بالبكاء والنواح والألم والفجيعة والأنين ، وشاعرنا لايكتفى باظهار عواطفه الحزينة ولوعته على الموتى ، وانما يدعو الآخرين للمشاركة في ذلك ، ليرينا بأن البلوى عامة تشمل القوم والعشيرة ، بقدرته الفنية الفائقة في تحريك مكامن الحزن والألم في مشاعر الآخرين ، فشعره يصب اليأس في القلوب من غير ضعف ولا وهن ، ويصور الحزن تصويرا مجسدا .. الخ .

---

(١) الديـــوان ص ٤١ دار صادر بيروت .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٣

٣٠٠ الهجـــــاء :

لم يكن لبيد شاعرا مطبوعا على الهجاء ، ولا على جارح القول المثلم للعرض ، فان طبيعته السمحة تأبى عليه ذلك ، ونفسه الكريمة ترفض أن تنزل الى هذا الدرك المشين ، ولكن من الثابت أن له مقطوعات فى الهجاء ، وأراجيز يهجو بها أحيانا ، وهجاؤه هادئ متزن ، لافحش فيه ولا اقذاع ، اللهم الا أرجوزته فى هجاء الربيع بن زياد العبسى التى أشرنا اليها سابقا ، وبعض أبيات أخرى.

قال يهجو الربيع بن زياد فى مجلس النعمان :

مهـــلا أبيت اللعـــن لاتـــأكل معـــه

ان استـــه من بـــرص ملمعـــة

وانـــه يدخـــل فيها أصبعـــه

يدخلهـــا حتى يوارى أشـــجعه

كأنمـــا يطلب شيئا ضيعـــه (١)

أما بقية هجاءه فانا لو تتبعناه لوجدناه لايتجاوز وصمة النمير بالجبن أو النكوص عن المعارك وحمى الديار كقوله وهو يعنف بعض قبائل بنى عامر ويعيرهم بعدم الحفاظ وبقبول الدية :

ولم تحم عبدالله ، لادر درها ∴ على خير قتلاها ، ولم تحم جعفر

ولم تحم أولاد الضباب كأنما ∴ تساق بهم وسط الصريمة أبكـــر (٢)

---

(١) الديوان ص ٩٣ــ ٩٤ دار صادر بيروت ، والخزانة ٤/١٧١ ط ٠ بولاق ٠

(٢) المرجع السابق ص ١٠٣

وعبد الله هم : بنو عبد الله بن كلاب ، وأولاد الضباب هم : أولاد معاوية بن كلاب ، وهؤلاء ولبيد من بني عامر .

ولما تنافر عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة ، دعا عامر بن الطفيل لبيدا لينتصر له ويسب علقمة ومن معه ، قال :

لما دعاني عامر لأسبهم ∴ أبيت وإن كان ابن عيساء ظالما

لكيما يكون السندري نديدتي ∴ واجعل أقواما عموما عماعما

وأنبش من تحت القبور أبوة ∴ كراما هم شدوا على التمائما

ويقول فيها :

بلى : أينا ماكان شرا لمالك ∴ فلا زال في الدنيا ملوما ولائما (١)

وابن عيساء : هو السندري ، وعيساء أمه أو جدته ، ويروى : ألا أينا ، وفي البيت الرابع هنا رد على السندري حين قال : " أنا لمن أنكر صوتي السندري "(٢) ،

ورد على قول قحافة بن عوف بن الأحوص وكان مع علقمة :

أنتم هزلتم عامر بن مالك ∴ في سنوات مضر الهوالك

~~يا شرنا حيا وشرنا هالك~~

يا شرنا حيا وشرنا هالك

---

(١) الديـوان ص ١٩٩ دار صادر بيروت .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٩

٤ ـ الحكـــــمة :

========

ان الحكمة لم تكن من الأغراض في الشعر الجاهلي ، فقد كان الشعراء يتعرضون في ختام قصائدهم الى بعض أبيات فيها وعظ وارشاد ونظرات في الحياة يستمدها الشاعر عن تجاربه الخاصة أو من تجارب الآخرين ممـــا تمدهم البيئة الصحراوية القاسية ، وانها لم تكن غرضا مقصودا من أغراض الشعر، وقد انفرد بعض الشعراء الفحول بالاكثار من ذكر أبيات حكمية ، كزهير بـــن أبي سلمى وعدى بن زيد العبادى ، وصاحبنا لبيد وغيرهم .

وقد أشرنا الى حكم ومعاني لبيد في الباب الثاني ، وقلنـــا باختصار أنه استمدها من مصدرين أساسيين :

١) حياته الدينيــــة .

٢) حياته البدوية البســـيطة .

ولا أرى داعيا للتكرار .

ولنضرب هنا مثالين ليفيا بالحاجة ، قال :

نوائب الدهر من خير وشر كلاهما ∴ فلا الخير ممدود ولا الشر لازب

ويروى " الشار " بدلا من الشر .

وقال مشيرا الى قول قس بن ساعدة الأيادى :

هل الغيب معطى الا من عند نزوله ∴ بمال مسيء في الأمور محسن

وما تولى فهو لا شـــك فائـــت ∴ فهل ينفعني ليتني ولعلني (١)

---

(١) معجم الشعراء ص ٣٣٨ المرزباني .

٥ ... الوصـــــف :

==========

ان الوصف في الشعر الجاهلي لم يكن أيضا مقصودا لذاته ، ولكنه كان يأتي عرضا وبشكل تقليدي ، اما عند تعرض الشاعر لوصف رحلة أو سفرة أو راحلا عن دار الأحبة أو عندما يشعر أنه وحيد يقطع الفيافي والقفار أو يشعر أنه في أشد الحاجة الى اللهو والطرب فيوجه حديثه الى ركوبته التي تشاطره التعب والكد ، فيتحدث عنها وعن حركاتها مشبها ذلك بما يقابله خـــلال رحلته من هضاب وسحاب ، أو يصف وحشا فاجأه في الطريق ويصف العـــراك بينهما وكيف أنه تغلب عليه ونال منه ... الخ .

وكان وصف لبيد دقيقا متينا قويا رصينا ، فهو يدقق في وصـــفه الصورة ويمعن النظر ويقدح الفكر ، وقد تناول وصفه الطبيعة الصحراويـــة وما قصيدته – اللامية – الا دليلا على ذلك .

ووصف ناقته فأبدع الوصف والتصوير ، وقد تكلمنا عن ذلك عنـــد تعرضنا للمعلقة ، كما أنه وصف الديار وصفا مبدعا رائعا نظراً لما لها في نفسه ونفس كل من كان على شاكلته من البدو الصورة الحلوة التي تبعثهـــا الذكريات اللذيذة .

قال يصف حصانه :

ولقد أغدو وما يعدم منى ❊ صاحب غير طويل المحتبل

ساهم الوجه شديد أسره ❊ مغبط الحارك محبوك الكفل

بأجش الصوت يعجوب إذا ∴ طرق الحي من الغزل صهل (١)

أما الديار فقد فصل لبيد في ذكر أماكنها وعددها ووصف حالهـا

بعد رحيل الأحبة والأهل والأصحاب ، وقد أصبحت مساكن للوحش والأطلاء ،

قال في المعلقة :

عفت الديار محلها فمقامها ∴ بمنى تأبد غولها فرجامها

فمدافع الريان عرى رسمها ∴ خلقا كما ضمن الوحي سلامها

يقول سائلا هذه الديار :

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا ∴ صما خوالد مايبين كلامهـا

عريت وكان بها الجميع فأبكروا ∴ منها وغود ر نؤيها وثمامها

يقول في ديار أسماء :

عفا الرسم أم لا ، بعد حول تجرما ∴ لأسماء رسم كالصحيفة أعجما

لأسماء إذ لما تقتنا ديارهـا ∴ ولم نخش من أسبابها أن تجذما (٢)

وبعـــد ...

فمن هذا العرض الوجيز لفنون لبيد الشعرية في حياته الجاهليـة

ومن خلال هذه الأغراض التي سلك لبيد فيها مسلك الجاهليين ، يمكن لنـا

أن نتبين أهم خصائص وسمات شعره في ذلك العصر ونقف على ميزاته .

فخر واعتداد بالنفس ، وبأنه كان نحاراً للجزور ليطعم الأضيـاف

---

(١) الديـــوان ص ١٤٤

(٢) المرجع السابق ص ١٦٥

والجار والطفل التى كثر ولدها ، ولبيد فى هذا صادق كل الصدق ، حيث كان لبيد من الأجواد الكرماء المعدودين ، فقد نذر أن يطعم وينحر ماهبت الصبا ، وأدام ذلك فى جاهليته واسلامه ، لدرجة أن ريح الصبا أصبحت مقرونة باسمه ، قال الوليد بن عقبة بن أبى معيط وكان والى الكوفة فهبت الصبا وهو يخطب الناس ، وبينما هو كذلك اذ بها تهب من ناحية الشرق :

أرى الجزار يشحذ شفرتيه ⁂ اذا هبت رياح أبى عقيل (١)

وافتخار بالشجاعة والاقدام والمنعة ، وبأنه كان ذا فضل على قومه فى جمع شملهم وتوحيد صفوفهم قال :

ويوم منعت الحى أن يتفرقوا ⁂ بنجران فقرى ذلك اليوم فاقرى (٢)

والى جانب هذا الفخر الشخصى ، نجد أنه كان كثيرا مايفخر بقومه وعشيرته وأهله المقربين ، كثير الاعتزاز بهم وذكر أحسابهم وأنسابهم وبأنهم من عشيرة ذات نجدة وبأس وقوة وسلطان ، وقد يذهب به ذلك الى درجة الافراط والتنبيه عليهم ، قال :

وان تسألوا عنهم لدى كل غارة ⁂ فقد ينبأ الأخبار من كان سائلا (٣)

وهجاء هادىء متزن خال من لذع القول وثلم أعراض الآخرين ،

---

(١) الكامل جـ ٢ ص ٢٥ المبرد .

(٢) الديوان ص ٦ دار صادر بيروت .

(٣) المرجع السابق ص ١٢٢

وهجاؤه لا يتعدى وصمة الآخرين بالجبن والتخاذل والتقاعس ، اللهم الا أرجوزته في الربيع بن زياد العبسي ، وقد تعرضنا لها سابقا ، وأرجوزته في ضمرة بن ضمرة بن جابر من سادة بني نهشل ، وقد انحاز الى جانب الربيع بعد أن رجز به لبيد وأفسد عليه نفس صاحبه النعمان وكان ضمرة أبرص ، وكان بنو كلاب قد أسروه في بعض أيامهم ومنوا عليه بالاطلاق ، فلما أخذ جانب الربيع قال لبيد يرجز به :

يا ضمر ياعبد بني كلاب

يا أير كلب علق على باب

تمكو استه من الخرء الغراب (١)

والشطر الأخير منها يشير الى شدة الخوف والفزع والرعب .

وغزل مشوب بالفتور خال من العواطف الملتهبة التي تضني المحبين ، ورثاء قوي رصين ممزوج بالحكمة والعظة ، لأن ذكر الموت تدفع الانسان الى التفكير والتبصر ، والحكمة من وجود الانسان ومقصده ومصيره وأهدافه وغاياته .. الخ .

وحكمة مستمدة من البيئة البدوية القاسية ، ووصف دقيق رصين وصور منزوعة من البيئة والمشاهد اليومية .. الخ .

جاء ذلك كله في أسلوب قوي رصين متين الديباجة ، وأن

---

(١) الديوان ص ٢٢٣

ألفاظه قد غلبت عليها صبغة البداوة النجدية الخشنة والتي تميزت بالجزالة ، وتراكيب قوية البناء لا التواء فيها ولا تعقيد ، مركزة تؤدى المعنى من أقرب طريق بعيدة عن الزخرف ، ويلاحظ أن مسلكه هو مسلك الجاهليين كما نبهنا سابقا ، من حيث المنهج ، فلم يكن الشاعر يتناول موضوعا واحدا فى القصيدة ، بل كان يحشد فيها موضوعات متعددة يمثل كل منها غرضا مستقلا ، فهو يبدأ قصيدته غالبا بالغزل أو ذكر الأطلال الدوارس وبكاء الديار ، ثم ينتقل الى وصف ناقته أو فرسه ، ويستطرد أحيانا الى وصف الرحلة وما صادفه فيها من حيوان برية ، وما عاناه من مخاوف ، وقد تختلق الأقاصيص فى بعض الأحايين ، ثم ينتقل الى الغرض الرئيسى ، وورد ذلك كله فى معلقة صاحبنا لبيد .

خصائص شعره الاسلامي

=== ===

تذكر الروايات أن لبيدا امتنع عن قول الشعر بعد اسلامه ، وأنه لم يقل الا بيتا أو بيتين .

وتذهب الأخبار كذلك الى أن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أراد أن يمتحن الشعراء ويسأل عما أحدثوه من الشعر في الاسلام ، فكتب بذلك الى المغيرة بن شعبة واليه على الكوفة ، فسأل الأغلب فقال :

أرجزا تريد أم قصيدا ∴ لقد طلبت هينا موجودا

ثم أرسل الى لبيد فقال إنشدني ! فقال : ان شئت ماعفي عنه (يعني الجاهلية) فقال : " لا أنشدني ماقلت في الاسلام ؟ فانطلق فكتب سورة البقرة في صحيفة ثم أتى بها فقال : أبدلني الله هذه في الاسلام مكان الشعر " (١) الى آخر القصة .

هذا ماذهب اليه المتقدمون من المؤرخين وكتاب الأدب ، وقد شايعهم أكثر من كتب عن لبيد من المتأخرين نقلا عن المتقدمين ، فقال القرشي : " وبعد أن أسلم لبيد امتلأت نفسه بهدى الاسلام فزهد وتنسك ثم هاجر الى الكوفة أيام عمر بن الخطاب ، فأقام فيها منقطعا الى البر والخير والتقوى وقد جمع القرآن "(٢) ، وانصرف اليه وعد من القراء .(٣)

---

(١) الأغاني ج ١٥ ص ٢٩٨

(٢) جمهرة أشعار العرب ص ٣١ أبو زيد القرشي .

(٣) الأغاني ج ١٥ ص ٢٩٩ الأصفهاني

هذا لا يعنى أنه قد ترك الشعر نهائيا ، بل أنه لم يعد متخصصا لقول الشعر كما كان قبل الاسلام ، وأنه لم يتركه كما زعم معظم الرواة الغلاة .

وقد أثبتنا تركة شعرية للبيد ليست هينة في الاسلام ، واننا سنحاول معرفة خصائص وسمات تلك التركة الشعرية في الصفحات التالية .

بعد أن آمن لبيد برسالة أفضل الخلق محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه ، ودخل نور الهداية قلبه واهتدى بهدى الدين الحنيف ، انفتح قلبه لتلك المبادئ الانسانية العالية ، فهذب الاسلام من غلوائـــه وحد من عصبيته ، وتخلى عن الروح القبلية الضيقة التى كانت متأصلة فيـــه ، لأن الاسلام نفّر من النعرة القبلية ودعا الناس كافة الى التآخى والمساواة لافرق بين عربى وعجمى الا بالتقوى ، فلا تفاخر باحساب وانساب ... الخ .

فطامن الاسلام عواطفه الثائرة وأسلس نفسه النافرة وأعاد اليهـــا الأمن الذى سلبته احقابا طويلة ، وارتقى عقله ونما تفكيره ، وتبدلت أحواله كثيرا عن ذى قبل ، وهاك بعض الفنون الشعرية للبيد المسلم :

١ـ الحكمـــــة :

==========

سبق أن تكلمنا عن الحكمة التى استمدها الشاعر من بيئته الصحراوية البدوية الجاهلية ، وسنحاول أن نبين الخطوط الحكمية التى استمدها الشاعر من دينه الاسلامى والذى ترك آثارا واضحة فى نفسيته وانعكس أثر ذلك فـــى شعره .

قد وردت فى ديوانه الأبيات :

ان تقوى الله خير نفل ∴ وباذن الله ريثى وعجل

أحمد الله فلا ندّ لـه ∴ بيديه الخير ماشاء فعل

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل (١)

---

(١) الديوان : دار صادر بيروت ص ١٣٩

هذه المعانى الحكمية أثر من القرآن الكريم ، فلو لم يكن لبيد قد قرأ قول الحق جلت قدرته : " ليس كمثله شئ " ، وقوله سبحانه : " وما تشاؤون الا أن يشاء الله " ، وقوله : " يضل من يشاء ويهدى من يشاء " ، لما استطاع طرق هذه المعانى الحكمية الرصينة وتلك العظات الجليلة ، وقوله :

رأيت التقى والحمد خير تجارة ∴ رباحا اذا ما المرء أصبح ثاقلا

وهل هو الا ما ابتنى فى حياته ∴ اذا قذفوا فوق الضريح الجنادلا (١)

أى أن التقوى والحمد أفضل وأربح وأعظم شئ تنفع الانسان فى دنياه وآخرته ، ولا ينفعه الا ما قدمه مما يستحق الذكر الحسن .. والبيت الأول يعيد الأذهان الى قوله تعالى : " فما ربحت تجارتهم " ، والبيت الآخر مقتبس من قوله تعالى : " وان ليس للانسان الا ما سعى " صدق الله العظيم .

ثم نتممن قوله :

حمدت الله والله الحميد ∴ ولله المؤثل والعديد

فان الله نافلة تقــــاه ∴ ولا يقتالها الا سعيد

أى أن ما نتفاخر به من محامد ومكارم ليس شيئا بالنسبة الى ما يملكه الله تعالى ، وان الله يهب التقى لمن يشاء ، ولا يستطيع أن يحرز هذه التقوى الا سعيد ... وهى حكم بليغة تنبه الانسان الى عجزه وضعفه أمام قدرة الخالق المهيمن والمانع والمانح ، فلا يستطيع أحد ذلك سواه ، وقال :

الماء والنيران من آياته ∴ فيهن موعظة لمن لم يجهل

---

(١) الديوان دار صادر بيروت ص ١١٩

الى غير ذلك من الحكم المستمدة من آى الذكر الحكيم التى تشربت بها نفسية لبيد الورعة ... الخ .

٢ـ الرثـــــــــاء :

سبق أن تكلمنا عن رثاء الجاهلى ، وأظهرنا خصائصه وسماته ، والآن نريد الوقوف على رثاء الاسلامى ، فرثاؤه الاسلامى يكاد ينحصر فى رثـاء أخيه اربد ، فقد مات اربد وأسلم لبيد بعد وفاته بقليل كما أشرنا آنفا ، وظل يرثيه دهرا ، بشعر فيه حزن لبيد ولوعته على أخيه ، وفيه حسرته ولوعته ويأسه ، وعواطفه الملتاعة على فراق قرن كان السند لأخيه ، ولو استقرأنا شعره الرثائى وجدنا فيه رقة العواطف وطبيعة الحزن المفجع والمبكى ، ووقفنا على أساليب التعزية والكلام الحى والحكم العامة نظرا لما يثيره ذكر الموت عن مصيـــــر الانسان وعن أهدافه فى الحياة وسبب وجوده .

وقد أعجب القدماء بشعره فى الرثاء ، لما وجد فى شعره من المعانى الحكمية السامية ، فقد عده ابن سلام فى طبقاته من الرثائيين الأربعة المتقدمين عنده ، قال راثيا أخاه :

وما المرء الا كالديار وأهلها .:. بها يوم حلوها وغدوا بلاقع
وما المرء الا كالشهاب وضوءه .:. يحور رمادا اذ هو ساطع
وما المرء الا مضمرات من التقى .:. وما المال الا معمرات ودائع (١)

وقد بلغ لبيد قمة الرثاء لأخيه ، وقد صور فجيعته تصويرا مفجعـــا

---

(١) الديـــــــوان ص ٨٨ ـ ٨٩

مبكيا ، ووصل الى مالم يصله شاعر من استنزال الدمع واثارة الشجن ، فيخاطب ابنة أخيه اربد فيقول :

يا مى قومى فى المآتم واندبى ⁂ فتى كان ممن يبتنى المجد أروعا

ومى هذه ربما كانت ابنة اربد المخاطبة فى قول الشاعر :

لعمر أبيك الخير يا ابنة اربد ⁂ لقد شفنى حزن أصاب فأوجعا

فراق أخ كان الحبيب ففاتنى ⁂ وولى به ريب المنون فأسرعا

فضنى اذ أودى الفراق باربد ⁂ فلا تجمد أن تستهلا فتدمعا

ويذهب أحيانا فى رثائه الى ذكر سبب وفاة أخيه أربد فيقول :

أخشى على أربد الحتوف ولا ⁂ أرهب نوء السماك والأسد

فجعنى الرعد والصواعق بال ⁂ فارس يوم الكريهة النجد

أى كنت أخشى عليه كل سبب من أسباب المنية ولكننى لم أتصور أن الصاعقة ستكون هى السبب ، ففجعنى الرعد ببطل شجاع ذى نجدة ونخوة يوم اللقاء .. الخ .

ولم يكتف صاحبنا بأن يرثى أخاه بقصائد فحسب ، وانما أراد أن يعبر عن فجيعته وحزنه العميق عليه بأراجيز أيضا .

انع الكريم للكريم أربدا

انع الرئيس واللطيف كبدا

ولا يقف عند حد وصف أخيه بالعطوف الرحيم ، بل يذكر أن أخاه كان ذا مأثرة فى الجود والكرم وأنه كان يقدم الجفان للأضياف ، فيقول فى نص الأرجوزة :

ويملأ الجفنة ملأ مددا (١) .. الخ .

---

(١) الديوان ص ٥٣

٣ـ الفخـــر والهجـــاء :

بعد اسلام لبيد وايمانه بما أنزل على أفضل الكائنات محمد عليه الصلاة والسلام
وسلامه عليه ، كبح الدين من عواطفه الجامحة ، وأسلس نفسه النافرة ، وأحاسيسه
الثائرة ، فعكف على كتاب الله يقرأه ويتلوه ويتفهمه ويتمعن في معانيه مجمله
ومفصله ، فكف عن صناعة الفخر والهجاء ، وذلك للأثر العميق الذي تأثر به هنا
من قراءة وتلاوة القرآن الكريم ، فقد تركه القرآن الكريم أثراً عميقاً في نفسيته ، وان كان
لبيد لم يفخر بقوته في الاسلام ، فانه لا يتباهى بسيرتهم وذكرهم والدفاع عنهم ، فكان
يتصدى لمن أراد أن يثلب أعراضهم وينتقص حقهم أو يحاول النيل منهم ، فيدافع عنهم ،
فقد روى الرواة قالوا : " لم يسمع من لبيد فخر في الاسلام غير يوم واحد ، فانه كان في
رحبة غني مستلقياً على ظهره وقد سجى نفسه بثوبه اذ أقبل شاب من غني فقال : " قبح
الله طفيلاً حيث يقول :

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت ∴ بنا نعلنا في الواطئين فزلت

أبوا أن يملونا ولو أن أمنا ∴ تلاقي الذي يلقون منا لملت

هم خلطونا بالنفوس وألجأوا ∴ الى حجرات أدفأت وأظلت

ليت شعري ما الذي رأى في بني جعفر حيث يقول هذا فيهم ... ؟ قالوا " فكشف
لبيد الثوب عن وجهه وقال : " يا ابن أخي انك أدركت الناس وقد جعلت لهم شرطة
يدعون بعضهم على بعض ، ودار رزق يخرج الخادم بجرابها فتأتي برزق أهلها
وبيت مال يأخذون منه أعطياتهم ولو أدركت طفيلاً يوم يقول لم تلمه ، ثم استلقى وهو
يقول : " استغفر الله فلم يزل يقولها حتى نام " (١)

---

(١) الأغاني ج ١٥ ص ٢٩١ أبو الفرج الأصفهاني .

ويروى أن لبيدا حضر يوما مجلسا من مجالس الوليد بن عقبة

فسأل الوليد لبيدا عما كان بينه وبين الربيع بن زياد عند النعمان ، فأجاب لبيد

بقول ينم عن شعوره بأن العهد الجديد لا يرتضي كثيرا من سنن الجاهلية وعاداتها

من فخر وهجاء ، فقال : " هذا كان من أمر الجاهلية وقد جاء الله بالإسلام ،

فألح عليه الوليد ، وكانوا يرون عزمة الأمير حقا ، فسار يحدثهم ، فحسده رجل

من غني ، فقال : " ما علمنا بهذا " ، قال لبيد : " أجل يا ابن أخي لم يدرك

أبوك ذلك وكان أبوه ممن لم يشهد تلك المشاهد فيحدثك " (١)

والواقع أن قول لبيد فيه كثيرا من التقشف والتحقير وفيه أيضا الكثير من

الفخر والزهو بمجالس النعمان ، وإن اضطره الموقف إلى ذلك .

---

(١) الأغاني جـ ١٥ ص ٢٩١ أبو الفرج الأصفهاني .

موازنة بين شعره فى العصرين

=======

من الواضح أن شعره فى الاسلام لم يقم أمام شعره فى الجاهلية ذلك الشعر الرصين ، القوى التراكيب المتين الديباجة ذو الأغراض المتعددة ، وأن لبيدا قد دهش أمام كتاب الله الكريم المعجز (١) ، وروع ببلاغته العظيمة ، ووقف عاجزا أمام صوره البليغة ، وأسلوبه الرائع ، ومنهجه القويم ، وأساليبه التى يعجز البشر عن محاكاتها ، وعباراته التى تأخذ الألباب وتأسر الأفئدة ، فهو آية الله الدائمة وحجته الخالدة ، قال تعالى : " لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد " صدق الله العظيم .

لذا فقد انصرف لبيد الى القرآن يقرأه ويتلوه ، وتوجه اليه بكل جوارحه وانكب عليه بكل عواطفه ، ويتمعنه بكل أحاسيسه وجوارحه يحفظه ويكتبه ويتأمله ، حتى عدّ من القراء (١) ، وانقطع الى البر والخير والصلاح والتقوى وقد جمع القرآن الكريم . (٢)

لهذا كله نراه قد أعرض عن قول الشعر فى الاسلام ، فلم يتخذه صناعة ومهنة ، ولم يكثر من انشاده ، ومال كما قلنا الى تلاوة القرآن الكريم ، فجاء شعره الاسلامى متضمنا الخير والصلاح والتقوى ، وقد فطن الى هذه الحقيقة العالم اللغوى – أبو عمرو بن العلاء – حيث قال : " ما أحد أحب الىّ شعرا من لبيد بن ربيعة لذكره الله عز وجل ، ولاسلامه ولذكره الدين والخير ولكن

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ٢٩٩

(٢) جمهرة أشعار العرب ص ٣١ أبو زيد القرشى .

شعره وحى بزر "(١)

وأن قول أبي عمرو — وحى بزر — يدل دلالة قاطعة لاتقبل الشك ، بأن شعره الاسلامى لا يصمد أمام شعره الجاهلى ، فى القوة والمتانة وقسوة التراكيب والألفاظ الجزلة والأساليب المحبوكة الجوانب ، ولتضمن شعره الخير والصلاح ، نرى أن الأصمعى لم يكن معنيا بشعره فوصفه بأنه : " طيلسان طبرى " أى جيد الصنعة وليست فيه حلاوة ، ولم يعده من الفحول ووصفه بالصلاح تهربا من أن يحكم على شعره الدينى ، لأن الأصمعى كان يرى فيما يرى أن الشعر اذا دخل فى باب الخير لان أى أصابه بعض الضعف .

ومن هنا فاننا نقول : انه انصرف عن الشعر بعض الشئ ولم يهجره كما زعم كثير من الناس ، ولم يتخذ منه حرفة يحترفها ، بل أولاه بعض اهتمامه فى بعض الأحايين المتفاوتة مما بقى من حياته ، فأقلع عن كثير من أغراضه ، فهجر الهجاء ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول : " ياأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن " صدق الله العظيم ، وقد سبق القول : بأن هجاء لبيد الجاهلى كان متزنا هادئا لأن نفسية لبيد سمحة كريمة وأنه لم يطبع على الهجاء ، ما عدا أرجوزته فى الربيع بن زياد العبسى — عند النعمان ، أما بقية هجائه ، فلا يتعدى وصمة الآخرين بالجبن أو الخذلان ... الخ .

أما من حيث الفخر ، فقد كان لبيد كثيرا مايفخر بنفسه وبقومه فى الجاهلية ، ويكاد يكون الفخر صناعة لبيد وهو عندما كان يفخر ، انما يفخر عن

---

(١) الموشح ص ٧١ المرزبانى .

حق ، فقد كان فارسا مجوادا ، كريما سخيا ، وقد آلى كما مرّ معنا أن يطعم كلما هبت الصبا ، وحافظ على ذلك فى جاهليته وإسلامه ، هذا الى جانب فخره القوى بقومه وجماعته المقربين ، والدفاع عنهم فى مجالس الأقوام ، وأمام الأشهاد ، أى أنه كان كثيرا مايفخر بنفسه بأنه نحار للجزور لاطعام الأضياف ، وكثيرة ماكان يرفد الجيران والمطفل بالجفان المكللة بالثريد وأطايب الطعام ، وفى هذا الصدد يقول فى معلقته :

وجزور أيسار دعوت لحتفها ∴ بمغالق متشابه أجسامها

أدعو بهن لعاقر أو مطفل ∴ بذلت لجيران الجميع لحامها

فالضيف والجار الجنيب كأنما ∴ هبطا تبالة مخصبا أهضامها .. الخ

ويقول مفتخرا بقومه وأهله المقربين :

وهم السعاة اذا العشيرة أفظعت ∴ وهم فوارسها وهم حكامها

وهم ربيع للمجاور فيهم ∴ والمرملات اذا تطاول عامها

وهم العشيرة أن يبطئ حاسد ∴ أو أن يميل مع العدو لئامها

فهو يفتخر بقومه بأنهم القائمون على الأمر ، والساعون فى الصلح وحمل الديات ، وهم الفوارس ومنهم الحكام والقضاة ، وهم لمن جاورهم كالربيع يعمهم تعمهم ويحيونه بجودهم كما يحيى الربيع الأرض ، وكذلك هم للمرملات اللواتى لا أزواد لهن ، اذا وجدن الزمن طويلا لما فيه من شدة وكرب ، وهم العشيرة الذين يقومون بأمرنا وأمورنا .

فهو فخر قوى ، متين التركيب ، رصين العبارة ، محبوك الديباجة ... الخ .

هذا كان أمره فى الجاهلية ، أما فى الاسلام فانه هجر الفخر ، ولم

يسمع منه فخر سوى رده على الرجل الفتوه الذى مر معنا فى هذا الفصل .

وهكذا ... نرى الفروق الواسعة بين شعره فى العصرين ، سواء كان ذلك من حيث الموضوع أو الديباجة ، ونقف على البون الشاسع فى أشعاره الجاهلية والاسلامية .

فمن حيث الموضوع ... فقد قال لبيد الشعر فى كافة أغراضه الجاهلية المختلفة ماعدا الاعتذار ، لأنه لايلائم نفسية العربى الأبية ، ولا يتمشى مع الروح القبلية التى كانت متمكنة فى نفوسهم النافرة .

فشعره الجاهلى مطبوع بالروح الجاهلية المحضة ، فخر بالنفس والقوم والعشيرة والأهل المقربين ، بل ربما يتحول ذلك الفخر الى مايشبه التعصب والعصبية الجاهلية العمياء ، وذلك كموقفه مع عامر بن الطفيل فى المشادة العنيفة التى وقعت بينه وبين عامر بن علاثة .

ومدح يكاد يغلب على شعر القوم ، وقد كان لبيد كثيرا مايتمدح نفسه وجماعته المقربين ويرفعهم الى مكانة الآمرين والناهين والمانعين الى جانب رثائه الممزوج بالحكمة والعظة والتروى فى مصير الانسان والهدف من وجوده .

جاء ذلك كله فى أسلوب ضخم الديباجة قوى التركيب ، متين العبارة رصين الألفاظ ، حفظت اللغة وصانتها وأبقت على مفرداتها النجدية العريقة .

أما من حيث بناء القصيدة كما سبق أن قلنا ، فهو قوى متين الا أن القصيدة جاءت متنوعة الأغراض متفرعة الجوانب ، وهذا هو الطابع العام للشعر الجاهلى ، حيث كانت القصيدة معرضا لعدة أغراض مختلفة ، فقد يبدأها الشاعر بذكر الأطلال والوقوف عليها أو بالغزل وذكر الحبيب واستحضار

صورته ، ثم يدلف الى المدح ثم الفخر وهكذا ٠

ولو أننا رجعنا الى الظروف البيئية أو الجاهلية آنذاك ، لوجدنا أن الشعر كان انعكاسا طبيعيا لنفسية العربى وصورة منعكسة للبيئة العربية الجاهلية ٠

فاذا ما تحدث الشاعر الجاهلى فى موضوع لم يكن فى مقدوره الاحاطة به وتفصيل جميع نواحيه ، بل كان يذكر ما سبق الى ذهنه بدون ترتيب أو تسلسل وكانت معانيه مجرد خطرات تدور حول الموضوع ، لا ترابط بينها يجعلها بناء فكريا محكما ، بحيث لا تستطيع أن تحذف منه بيتا أو تغير بيتا مكان بيت دون أن يؤثر ذلك فى كيانها ، ولذلك كان البيت الشعرى هو وحدة القصيدة ، كما امتازت معانيه بالايجاز ، والبعد عن التفصيل والاستقصاء ٠

وان معلقة صاحبنا لبيد ولاميته خير مثال لذلك ، وكذلك سائر المعلقات العربية ٠٠٠ الخ ٠

أما فى عصر الاسلام ، فقد عزف لبيد عن معظم ما تصوره فى الجاهلية ودأب عليه ، ونهج على منهاجه ، فقد ترك الهجاء لأنه يؤلم الشعور ويجرح العواطف ويثلم الأعراض ، وان الاسلام نهى عن ذلك ، لذا فقد أشاح عنه وجهه وعقل عنه لسانه ، كذلك الفخر لأنه فخر بالاحساب والانساب ، والاسلام نهى عن ذلك كله وجعل التفاخر بالتقوى ٠

واتجه نحو الخير والصلاح والفلاح والى الخالق يذكره ويجله ويتأمل آياته وخلقه ، كما أن لبيدا نفسه ، لم يعد ذلك الشاب الطموح الصناع فى شعره بعد أن تفتحت نفسه للقرآن الكريم ، ولم يكن ذلك العازف المنصرف عن الشعر كليا كما سبق القول ٠

الفصـــل الثـــــانى

بين الشـــاعر لبيد ومعاصـــريه

======

قد تكون هناك نقاط متشابهة بين الشعراء ، وتفكير متقارب وطرائق المسلك والمنهج والانتاج ، وقد يختلف الشعراء كذلك .

ولعل هذا الاختلاف وذلك الفرق ناشئ عن ظروف بيئية أو نتيجـــة لطول الممارسة والخبرة والتجربة ، وهذا الفرق اما يكون فى معان حكيمة أو عظة ، أو ينفرد بعضهم عن الآخر بمعنى التقطه الآخر فعبر عنه بتعبير متفاوت أو تشبيه حسن .

فمثلا شعر الرجز لم يكن منتشرا فى شعر الجاهليين ، كالأعشى وزهيـر والنابغة ، وبالرغم من فحولة امرئ القيس واشتهاره فهو قليل الرجز .

أما لبيد ففى ديوانه حوالى خمس عشرة قطعة من هذا اللون الشعرى تدور على الفخر والحكمة والمعاتبة والرثاء ، ولعل حياته البدوية ساهمت فـى تكوين هذه الحصيلة الشعرية فى نفس الشاعر ، فشعر البادية أميل الى الرجـز منه الى القصيد ، ذلك لطبيعة الحياة السريعة المتنقلة الجافة القاسية .

ومن الملاحظ أن أراجيزه غير مطولة ، فأطول أراجيزه تبلغ واحدا وعشرين بيتا وهى التى قالها فى سلطان الباهلى (وقيل : العامرى) ، لما ندبه عمـر ابن الخطاب رضى الله عنه ، ليميز الخيل العتاق من الهجين ، فدعا بطست ماء فوضعه فى الأرض ، ثم قدم الخيل واحدا اثر واحد ، فما ثنى سنبكه عده هجينا وما شرب دون أن يثنيها عده عتيقا ، وذلك لأن أعناق العتاق طويلة وأعناق الهجين قصيرة ، وقيل أن الأرجوزة ليست له ، نجتزئ منها الأبيـــات التاليـــة :

من يبسط الله عليه اصبعـا

بالخير والشـر بأى أولعـا

يملأ لـه منه ذنوبا مترعـا

وقوم لقمـان بن عاد أخشـعا

ان صارعوه فأبى أن يصـرعا (١)

وتأتي بعد هذه الأرجوزة ، أرجوزة أخرى تبلغ ستة عشر بيتـا

ومطلعهـا :

ان أبـانا كان حلـوا يسـرا

أما بقية أراجيزه فهي عبارة عن مقطوعات تتراوح بين العشـرة

واثنى عشر بيتا ، بعضها في الفخر والبعض الآخر في المفاخرة ، كأرجوزته

في المنافرة بين الجذليين المعروفين "عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثـة"

منهـا :

ياهرما وأنـت أهل عـدل

ان ورد الأحـوص ماء قبلـى (٢)

وهرم هو : ابن قطنة الفزاري ، والأحوص : جد علقمة بن علاثة ، وقد عنى

الشاعر بقوله : ورد ماء قبلى : تقدمني في الزعامة بحكم الزمن أو التحكيم .. الخ .

وبعضها في الرثاء وخاصة رثاء أخيه اربد ، وقد مرّ معنا طـرف

من هذا النوع .

ويلاحظ ملاحظة عامة على أراجيزه ، أن هذه الأشعار جاءت منظمها

---

(١) الديـوان ص ٨

(٢) المرجع السابق ص ١٣٧

على التمثيل .

وربما يتعرض الشعراء لمعان حكمية مكتسبة من خبرتهم وممارستهم الطويلة للحياة وعرك وتقلبات الأيام ، يذيلون بها قصائدهم ويختمون بها أقوالهم ، ولكنهم يختلفون فى النظرة الجادة ، أو فى الاستفادة من تجارب غيرهم ، وقد انفرد بعض الشعراء بالاكثار من ذكر الأبيات الحكمية ، كزهير ابن سلمى وعدى بن زيد العبادى ولبيد بن ربيعة وغيرهم كثيرين .

ومن الملاحظ لدى الباحث المتفحص أن نظرات لبيد وزهير بن أبى سلمى فى هذا المجال كانت قريبة من المعانى الاسلامية ، وذلك لأن الفترة التى سبقت عهد الرسالة الاسلامية — فترة ارهاص وتهيؤ — فقد كان هناك احساس بقرب هذا العهد وتبدل فى القيم والمعايير ، ونبذ للتوجس ونفور من العصبية المميتة وكره للجهل وانتشار الحلم والعدل وتهذيب الخلق وجمع للشمل وتكتيل وتوحيد الجهود ، ونصرة المظلوم ومساندته ، وما حلف الفضول الا مثلا حيًّا لتلك الفترة ، فليس غريبًا اذن أن تظهر معان قريبة من المعانى الاسلامية فى شعر صاحبنا لبيد وغيره من الشعراء وليس غريبا أن يمتدح الرسول بيت لبيد القائل :

ألا كل شىء ماخلا الله باطل ... وكل نعيم لامحالة زائل

ويظهر فى شعر لبيد كثير من التساؤل الى ماوراء الطبيعة ، والتأمل والتروى فى آيات الله وهدف الانسان فى الحياة ، ونهايته ومصيره بأسلوب فيه قوة وعاطفة وشدة تأثير .

يقول ابن عبد ربه : " ان لبيدا كان يتسامى فى شعره وينفرد بهذه الخاصية عن زهير بن أبى سلمى الذى يلتمس الأمور المادية والبشرية ،

وعن أمية بن أبي الصلت الذي كان يصور ويخبر ، وعن عدي بن زيد الـــذي اتبع طريق التشاؤم واليأس ، فلبيد يجمع بين هذه الطرائق الثلاث ويسمو بها جميعا الى مصدر العدل والتعزية ... الى الله ... فيؤمن بـــه ايمانا تاما ويتكل على عنايته اتكالا وثيقا حتى يمكن القول أن لبيدا خالـــق الشعر الوعظـــي "(١)

ويقول الخشبي بن عبدالسلام : " شاعران من فحول الجاهليـــة لهما بيتان ، ذهب أحدهما مذهب العدلية والآخر ذهب مذهب الجبرية :

فالأول أعشى بكر حيث يقول :

استأثر الله بالوفاء وبالعـــد

ل وولى الملامة الرجـــلا

والذي ذهب مذهب الجبرية هو لبيد بن ربيعة حيث يقول :

ان تقوى ربنا خير نفـــل ⁘ وباذن الله ريثي وعجـــل

من هداه سبل الخير اهتدى ⁘ ناعم البال ومن شاء أضـل

أما في الفن الرثائي ، فقد برع لبيد فيه كل البراعة وجوّد فيه كـــل التجويد ، فجاء رثاؤه ملىء بالعواطف والاحساسات العميقة ، وتظهر فيـــه طبيعة الحزن وأساليب التعزية والكلام المنتقى والحكم العامة ، ومن الممكـن أن يوضع لبيد أو يعد في المكانة التي يوضع فيها مهلهل ربيعة والخنســـاء ، وقد فضله الدكتور طه حسين على الخنساء وقدمه عليها في الرثاء فقال : " ولست أدري كيف يمكن أن تقدم الخنساء عليه في رثائها وهو عندي أبرع منها في تصوير

---

(١) العقد الفريـــد جـ ٢ ص ٣٧٨

الحـــــزن وصب اليأس في القلوب من غير ضعف ولا وهن "(١)

اما ان شعر لبيد يصب اليأس في القلوب من غير ضعف ولا وهـن ،
ويصور الحزن تصويرا بارعا ، فهذا أمر صحيح ، وصحيح أن نذكر الخنساء بجودة
الرثاء في عاطفتها الأنثوية الرقيقة وجزعها المؤلم الذى يفتت الأكبـــــــاد ،
وان عيب عليها تكرارها على أمور مادية .

والى هذا الرأى ذهب بطرس البستاني حيث قال : " ورثاؤها
ـ أى الخنساء ـ عاطفي بحت ، ولا يشوبه تكلف ولا يرتفع بها الفكر الـــــى
المعاني الحكمية الســـامية التى تجدها في رثـاء لبيد لأخيه "(٢)

أما ابن سلام ، فقد عده في طبقاته من الرثائيين الأربعـــــة
المتقدمين عنده ...

---

(١) حديث الأربعاء جـ ١ ص ٥١

(٢) أدباء العرب ص ١٩٠ ط ٥ خامسة ـ بيروت .

الفصـــل الثـــالث

تقويم شعر الشاعر على ضوء الخصائص العامة لكل من شعر الجاهلية والاسلام

==========

وبعـــد ...

فقد كانت الأخبار القليلة عن لبيد الجاهلى سببا فى عدم اقـدام الكثيرين فى الكتابة عنه كتابة مستفيضة موسعة ، حيث كان يكتنف حياة لبيد قبل الاسلام كثير من الغموض ، ويخالطها الالتباس بينه وبين لبيد آخر ، وهذا يرجع الى أن النصوص القديمة تتخللها أحداث موهومة لا تخلو من التخييل والافتعال ، كما أن بعض النصوص لا يعد وكونه خبرا عن مكرمة من مكارمه أو مهاجاته لاعدائه وأعداء قومه أو افتخاره بنفسه أو بهم ، على الرغم من أنه قضى مدة طويلة من عمره فى الجاهلية ، فان الرواة لم يرووا الا نزرا يسيرا من أحداثه ومواقفه .

وهى بدون شك أخبار نادرة وخاصة أنه عاش القسم الأكبر من عمره فى زمن الجاهلية وأن هذه الأحداث لا تتناسب مع المدة الكبرى التى عاشها الرجل ونعتقد أن السبب فى ذلك يرجع الى أن جزءا كبيرا من أشعاره قد فقدت وبالتالى ففقدت معظم أخباره .

ولكن هذه الأخبار القليلة أجمعت على أنه كان رجلا كريما حريصا على احساب قومه ذاكرا لأمجادهم بارا بهم ... الخ .

وقد حيكت حوله أسطورة تركه الشعر بعد اسلامه وايمانه بما جاء به أشرف الخلق وخاتم النبيين محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى صحابته أجمعين ، مما دفع كثيرا من الأدباء والنقاد بالاحجام عن دراسته دراسة مستفيضة ، وتقويم شعره ووضعه فى المكانة اللائقة به ماعدا قلة قليلة عرفت شعر الرجل ومكانته ، ومع هذا فاننى أرى أن الرجل لم يأخذ حقه من الدرس والعناية أسوة ببقية

أخوته من الشعراء ، ولم يقيم تقييما أدبيا يليق بمكانته ، ولم ينزل المنزلة الرفيعة التى أنزل اليها من هو أقل منه شأنا ومكانة ، ولست أدرى سببا لذلك ..!

فهل مرد ذلك يرجع الى الغموض الذى يلف حياته الجاهلية ... ؟

أم يرجع ذلك الى تلك الأسطورة القديمة والالتباس بينه وبين سميه لبيد الفارس الفاتح ...؟ أو يرجع الى أسطورة تركه الشعر فى الاسلام ... ؟ لدرجة أن ناقدا عربيا مشهورا تهرب من الحكم على شعره وتقييم انتاجه الفنى ، فالأصمعى مثلا وصفه بالصلاح والفلاح تهربا من الحكم عليه ، لأن الأصمعى كان يرى فيما يرى أن الشعر اذا دخل باب الخير لان أى ضعف .. الخ .

الواقع أن كل هذه الأسباب مجتمعة وقفت حائلا دون ذلك ، وعلى الرغم من هذه الأسباب وذلك الغموض وتلك الحوائل ، فان تركة الرجل الفنية التى تركها بالاضافة الى رأى العلماء ومؤرخى الأدب العربى كفيلان بأن ينزلاه منزلة أدبية لائقة به وهما الفيصل فى تقييم شعر الرجل .. فهو بلا شك يتمتع بمكانة شعرية رفيعة ، ويحتل منزلة أدبية محترمة بين شعراء عصره ، وينزل منزلة عالية فى نفوس الأدباء ومؤرخى الأدب وجامعى سير عظماء الرجال ، فأبو زيد القرشى قدمه على شعراء الجاهلية والاسلام ، فقال :

" انه أفضلهم فى الجاهلية والاسلام وأقلهم لغوا فى شعره "(١) .. الخ .

فلبيد كان بلا شك يتمتع بمكانة شعرية رفيعة ، ويحتل منزلة أدبية محترمة بين شعراء عصره ، وينزل منزلة عالية فى نفوس الأدباء ومؤرخى الأدب وجامعى سير عظماء الرجال ، وقد خلف تركة شعرية قيمة تداولتها

---

(١) جمهرة أشعار العرب ج ٣ ص ٦٤ ط . مصر ١٩٢٦ م .

أفواه وألسنة الرواة والأدباء والعلماء والأمراء والوزراء ، فكل هؤلاء كانوا يرددون أشعاره ويتمثلون بها ، معجبين بها تارة ومستشهدين بها تارة أخرى ، فإن دل ذلك على شيء فانما يدل على شهرة الرجل وعلى انتشار أشعاره بين الخاصة والعامة وعلى متانة ورصانة أسلوبه وملاءمته للعقلية العربية وعاداتها وتقاليدها ... الخ .

وقد مرت معنا رواية أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وعبدالملك ابن مروان حيث كان ينشد شعر لبيد وهو على فراش الموت فيبعث فيه القوة والصبر وكذلك المعتصم .

ولو أننا تتبعنا بناء القصيدة عند لبيد لوجدناه وحدة متكاملة ، يتمم بعضها بعضا ، ويمهد كل بيت لأخيه دون انقطاع أو اقحام ، فكان يحسن الاختيار والانتقال من موضوع لآخر ويمهد له ، ففى قصائده الطويلة كان يسلك مسلك الجاهليين من حيث تقسيم القصيدة الى موضوعات تقليدية مألوفة ، وقد أشرنا الى ذلك عند تعرضنا للمعلقة وقصيدته اللامية ، أما قصائده الأخرى فتتوفر فيها الوحدة الموضوعية ، من فخر ورثاء وحكمة ، ولا يكاد يخرج عن الموضوع الواحد التام ، وكذلك كقصيدته (قصيدته) العينية في رثاء أخيه أربد :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع

وتبقى الجبال بعدنا والمصانع (١)

---

(١) الديوان ص ٨٨ دار صادر بيروت .

فهو لم يخرج عن الموضوع الواحد ، وقد يستهل قصيدته بالوقوف على طلل أو مخاطبة امرأة أو يمهد لغرضه بموضوع آخر ، مثل قصيدته الميمية :

طلل لخولة بالرسيس قديم ∴ فبعاقل فالأنعمين رسوم (١)

أما من حيث الأسلوب ، فكان أسلوبه يمتاز بالرصانة والمتانة وروعة المعاني وعمق التشبيهات المستمدة من البيئة العربية ، وكان يتوخى السهولة والوضوح مبتعدا عن الغريب الموحش وما يوقع في الوهم ، متحريا الدقة وسلامة التعابير ، متحاشيا الغموض والوعورة الموغلة والخيال الجامح .

ومن حيث الألفاظ فهي من الدقة في مكان ، فكانت ألفاظه قوية خلابة منتقاه على قدر المعنى ، وهو لم ينحدر الى السقط والسفساف الذي انحدر اليه كثير من فحول الجاهلية والاسلام ، فلفظه سليم لا ركاكة ولا سقم فيه ولا غبار عليه ، ويكفيه فخرا أنه على رأس الشعراء الذين أخذت عنهم اللغة العربية ، فألفاظه على جاهليتها وبداوتها لها وقع موسيقى أخاذ وعذوبة شعرية ساحرة ، الى جانب جزالة وفخامة تستسيغها الأذواق وتهفو لها النفوس وتلذ لها الأسماع وتطرب لها الآذان .

هذا ... وقد أجاد لبيد في كافة الأغراض الشعرية المعروفة اجادة تامة ، من فخر ورثاء وهجاء وحكمة ووصف ومدح وغزل ، الا أن غزله كان فاترا باردا لا حرارة فيه ، وقد أشرنا الى ذلك فيما سبق .

---

(١) الديوان ص ١٥١ دار صادر بيروت .

والأخبار القليلة التى تروى حياته بعد أن أسلم تصفه كلها رجلا كريما صافى الطبع حلو الشمائل معتدل المزاج شديد الورع والتقوى بارا بالناس جميعا ، فنراه كريما جوادا لأن الاسلام يحب الجود والكرم ، ونراه خاشعا متواضعا لأن الاسلام يحب الخشوع والتواضع ، ونجده قد انصرف عن الهجاء لأن الاسلام يكره التفاخر بالأحساب والأنساب والتنابز بالألقاب والتعرض لثلم أعراض الناس .

وقد انكب لبيد على القرآن الكريم يقرأه ويتفهمه ويتفحصه ويتعمق فى معانيه محاولا ادراك آياته المعجزة التى عقدت ألسنة الشعراء ، يستلهمه ويستمد منه معانيه وتشبيهاته ، فانطبعت أشعاره بروح الوحى الأمين ، فجاء شعره متضمنا الخير والصلاح والفلاح .

قال يذكر طول عمره وسأمه من الحياة ويتحدث عن مآثره ومقاماته :

قضى الأمور وأنجز الموعود ∴ والله ربى ماجد محمود

وله الفواضل والنوافل والعلا ∴ وله أثيث الخير والمعدود

ولقد بلت ارم وعاد كيده ∴ ولقد بلته بعد ذلك ثمود

....

وشهدت أنجية الأفاقة عاليا ∴ كعبى ، وأرداف الملوك شهود (١)

---

(١) ديوان لبيد ص ٤٦ ــ ٤٧ دار صادر بيروت .

" نتـــائج البحـــث "

وبعــــد ...

هذا هو لبيد ، لبيد الرجل البدوى الجاهلى ، الذى عرفناه من خلال شعره ، رجلا كريما مقداما شهما ، وهذه حياته التى يحفها كثير من الغموض ويلفها ستار كثيف من الاهمال والنسيان ، وتلك هى حياته الجاهلية على مافى بعض نواحيها من التباسات وزيادات ، وهذه هى حياته الاسلامية على مافيها من اضطراب وارتباك ، الا أنها واضحة بعض الوضوح لو قيست بالنسبة لحياته الجاهلية .

وهذا شعره الذى يصور عهدا كبيرا من الجاهلية ومدة يسيرة من الاسلام ، شعر نجدى بدوى أعرابى جاهلى ، والذى تأثر بروح الاسلام فصرفه عن الفخر والهجاء ومنعه عن قول الشعر الا فى أوقات الصفاء وساعات الشكر والتحميد .

ومع ذلك فانى أرى أن هذه الدراسة له قد تخللها كثير من الاقتضاب والاختصار ، كما أننى بحثت عن كتاب يتناول شاعرنا بالشرح والتعريف والتبسيط ووضعه فى المكانة اللائقة به بين أقرانه من الشعراء - ولكن - لم أعثر على مثل هذا الكتاب مع الأسف .

ولــــــذا ...

فانى أرى أن المكتبة العربية فى حاجة ماسة الى مثل هذه الدراسة بل الى دراسة موسعة مستفيضة تتناول لبيدا الجاهلى ، ولبيدا المسلم ، ولبيدا الشاعر ، الذى عاش عمرا طويلا ... الخ .

وأرجو من الله أن يوفقنا ، والحمد لله أولا وآخرا .

أهم مراجع البحث

======

اسم المرجع	المؤلف
ديوان لبيد	دار صادر بيروت
جمهرة أشعار العرب ج ٣	أبو زيد القرشي ط مصر ١٩٢٦ م
حديث الاربعاء ج ١	طه حسين
أدباء العرب	بطرس البستاني
العقد الفريد	ابن عبد ربه
الاغاني ج ١٥، ص١٤	أبو الفرج الاصفهاني
الكامل في اللغة والادب	المبرد
معجم الشعراء	المرزباني
العمدة	ابن رشيق
الشعر والشعراء	ابن قتيبة
شرح المعلقات السبع	الزوزني
الديوان ط ليدن بعناية هوبر	تقديم كارل بروكلمان
تاريخ الادب العربي	كارل بروكلمان
الاصابة	العسقلاني
الاستيعاب في معرفة الاصحاب	ابن عبد البر
السيرة النبوية لابن هشام	تحقيق طه رؤف وطه الحلبي
الكامل في التاريخ	ابن الاثير
العرب قبل الاسلام	جورجي زيدان
طبقات الشعراء	محمد بن سلام
كتاب المعمرين	السجستاني

الفهـــــرس

=====